ربيع حسين العلي

زهرة المسيح

صراع الإنسان مع نفسه

رواية

بلومانيا

زهرة المسيح

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

الكتاب: زهرة المسيح
المؤلف: ربيع حسين العلي
نوع العمل: رواية
الطبعة الثانية 1447 هـ - 2026 م - القاهرة
الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر
رقم الإيداع: 4088 / 2021
الترقيم الدولي ISBN: 978 – 977 – 994 - 985 - 8
الرقم الكودي في ببلومانيا: bl00469
مراجعة لغوية وتدقيق: ريم نبيل الشامي
الغلاف: ببلومانيا
التنسيق الداخلي: ببلومانيا
مدير عام: جمال سليمان - مدير إداري: ديانا حمزة – مدير تنفيذي: محمد جلال
العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة
تليفاكس: 002026337855 - 002026064518
محمول: 00201208868826 – 00201030504636 – 00201210826415
صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

/bibliomania.eg

جميع الحقوق محفوظة ©

زهرة المسيح

رواية

ربيع حسين العلي

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

جميع الحقوق محفوظة ©

www.bibliomaniapublishing.com

2026

الإهداء

إلى كل من صمد بوجه مغريات الغربة، فبقي على أخلاقه وعاداته وتقاليده ولم تعبث به الحياة.

الفصل الأول

ماضي لم يُنس بعد

صيف 1974م

جلس على حافة السرير المتهالك، يمد يده المرتجفة ليمسك زجاجة الخمر، كأنها صديق الطفولة الوحيد الذي لم يتخل عنه في منفاه الطويل.
وجهه مصفرّ، شاحب، وذقنه تغطيها شعيرات بيضاء غير مهذبة، أما عيناه فغائمتان، كأنهما لا تبصران شيئًا سوى الماضي. حتى غرفته مشبعة برائحة الحشيش الكريهة.
كان رجلاً كسرته النكبة عام 1948م، ومنذ ذلك الحين لم يعرف للوطن طعمًا إلا في أحلامه.
في كل ليلة، كانت الحفلات الصاخبة تنطلق في بيته، يملأها ضجيج الموسيقى وضحكات أصدقائه من الرجال والنساء سيئي السمعة. يجلب لهم كل أنواع الكحول والمخدرات، وكأن الليل لا يُولد إلا للفوضى والضياع..
ورغم كل ذلك كانت زوجته تجعله سخريةً لأصدقائه ولكل الموجودين، فكانت تتعمد فرض الأوامرعليه امام أصدقاءه لتنتقص من مكانته بينهم، كأنها تسعى لكسر صورته في أعينهم وتحطيم ما تبقي من هيبته.
كانت زوجة مدمنة مخدرات، وهذا ما كان يدفعها بشكل متكرر إلى خيانته كل مرةٍ مع رجلٍ مختلفٍ.

فهو رجلاً مسيحي فلسطيني الأصل، ولكن قدره أن تتغير حياته للأبد، فهو وعائلته أصبحوا يسكنان بمنطقة الروشة في بيروت، "جورج" ذلك الرجل الخمسيني، الذي لديه أربع بنات وشابان، أكبرهن وأجملهن "كارمن".

تلك الطفلة ذات الخمس عشر عاما صاحبه البشرة السمراء بلون الأرض التي لم تطأها قدماها قط وتشبه أيضاً لون الشمس حين تغرب على المخيم، أما شعرها فأسود كثيف كأنه ظل الليل حين يشتد، كانت في هذه الأيام آية في الجمال، فهي فتاةٌ جمعت بين الجمال الفلسطيني والجمال اللبناني وما أدراك ما أن تكون فلسطينيًا وتشرب من مياه لبنان..

في إحدى تلك السهرات الصاخبة التي اعتاد والدها إقامتها في قبو البيت، والتي كانت دومًا تشعر كارمن بالضيق والملل، قررت هذه الليلة وعلى غير عادتها أن تترك غرفتها التي تبيت فيها مع أخواتها وتتسلل لترى ما الذي يجري هناك ولمَ كل هذا الضجيج والضحك؛ فذهبت إلى مكان السهرة لكنها لم تجد والدتها، فطلبت أن تتحدث مع والدها الذي لم يلتفت حتى إليها.

فكان والدها وضيوفه ينقسمون بين من هم ثَمْلَى سُكَارَى، وبين من هم يتعاطي المخدرات.

تقزّزت نفسها مما رأته وشعرت بدوار وغبشٍ يملأ عينيها حين لمحت والدتها قادمة من بعيد، تمسك بيد رجلٍ غريب، حاولت

الحديث إليها لكن كان ذلك دون جدوى، فوالدتها هي الأخرى كانت فاقدة للوعي بفعل ما تعاطته من مخدرات.
عادت غرفتها واحتضنت إخوتها، ونامت بجانبهم.
استمرت هذه الحالة فترة من الزمن، فكان الأب طبالًا فغابت كل معاني الإنسانية في هذا القبو.
كان هذا البيت عبارة عن سهر، سُكر، عَرْبَدةٌ ومخدرات، فكانت كل مرادفات العيش باحترام غائبة عن هذه العائلة.
كل هذا لم يكن كافيًا للضيوف، فدخل أحد الحضور في إحدى الليالي إلى مكان مبيت الفتيات، وحاول التحرش بـ "كارمن" فصدته.
في هذه الليلة، بقيت "كارمن" مستيقظة حتى بزوغ الفجر إلى أن غادر الحضور.
وبعد مغادرتهم، حاولت أن تتكلم مع والدتها لتخبرها ما فعله أحد ضيوفها، إلا أن والدتها كعادتها كانت في عالمٍ آخر، عالم يجعلها لا تشعر بأي شيء.
وما إن قامت والدتها بتركها وحدها حتى عادت أدراجها ودخلت غرفتها حزينة، كئيبة، ناقمةً على الحياة وعلى أهلها.
عند الظهيرة، وبعد أن استفاقت أمها، أخبرتها بما حدث ليلًا، وأن أحد أصدقائهم حاول التحرش بها، وقامت هي بصده.

لم تصدقها والدتها، بل وأبرحتها ضربًا، وطلبت منها عدم إخبار والدها بما قد حدث.

غادرت القبو وعيناها ممتلئة بالدموع، أما وجهها تعلوه كدمات مرسومة بيد والدتها كأنها شاهدة على قسوة لا تنتهي، جلست بصمتٍ على درجات السلم الباردة..

وأثناء جلوسها، مر "مكسيم" ورأى علامات الضرب على وجهها، فسألها عن سبب هذه العلامات التي تخبئ جمال وجهها.

في البداية لم تجب على سؤال سوى بالصمت، ثم قالت له إنها كانت تلاعب أختها، فقامت أختها بصفعها على وجهها.

لم يقتنع بكلامها لكنه ربّت على كتفها وغادر.

كان "مكسيم" شابًا في بداية العشرينات، يحمل في ملامحه شيئًا من سحر بيروت القديمة ونبض حداثتها. وجهه الأبيض وشعره الملون وعيناه الخضروتان جعلوه حلم للكثير من الفتيات. فتكفيه وسامته التي لا تحتاج إلى تصنع. يتحدث بنبرة رخيمة، منتقٍ كلماته كما ينتقي الشاعر أبياته، فيبدو حديثه دائمًا كأنّه موسيقى هادئة في فوضى العالم.

رقيقٌ في طباعه مراعٍ لمشاعر من حوله وكأن في داخله رجلًا أكبر من عمره بسنين، لا يرفع صوته ولا يتحدث كثيرًا لكنه حين يتكلم يصغي الجميع..

خاصة "كارمن" التي كانت تشعر أن قلبها يخفق فقط عندما تراه، وأن عينيها لا تعرفان الراحة إلا في ظله.

عادت "كارمن" إلى القبو، فأقتربت من أختها الصغيرة واحتضنتها، دخلت والدتها، وجلست على الكرسي القريب من الباب، وحين رأتها نظرت لها نظره حاقدة، فأقتربت والدتها منها، وجلست بجانبها وبدأت تتحدث إليها محاولة تبرير الأفعال التي تقوم هي ووالدها بفعلها، فتارة تتحجج بالفقر والظروف الاجتماعية، وأن هذه الحفلات التي تقيمها هي ووالدها قد ثدرُّ عليهم بعض النقود، وطورًا بأنهم يشعرون أنهم أغراب في هذا المجتمع وأنهم لا يمتلكون أصدقاء سوى من يأتي إليهم.
فردت عليها: الفقر ليس عذرًا لتبرير مثل هذا السلوك الشاذ، ومن الطبيعي أن لا تجدوا من يقترب منكم طالما أن تفكيركم قائم على هذا النمط المشوه.
وقفت والدتها وقد تبدلت ملامح وجهها، كأن الحقيقة صفعتها، فأدارت ظهرها وغادرت الغرفة دون التفوه بكلمة فيكفي ما قيل..
ظلت "كارمن" جالسه مكانها تفكر في "مكسيم"، وبقيت على هذا الحال لساعات إلى أن أحست بأنها تشتاق لرؤياه فقررت الجلوس على السلم مرة أخرى وظلت تنتظره حتى أتى من بعيد.

صُدمت بما رأته، فـهو لم يكن وحيدًا، بل كان يصطحب فتاة في يده.

وما إن اقتربا من السلم حتى دخلت تجري وتبكي في ذلك القبو اللعين الذي أصبح بالنسبة لها مكان لحزنها الذي لا ينتهي..

لم يلاحظ "مكسيم" ذلك، حتى إنه لم يتنبه لوجودها من الأساس.

جلست "كارمن" حزينة في سريرها، وكأن حزنها تضاعف مرات ومرات، كانت ناقمةٌ على حياتها متسائلةٌ عن أسباب كل هذا البؤس في حياتها، ولماذا هناك أناس يعيشون فوق الأرض وأناس مدفونون تحتها؟

مرّ يومها كأنه سنة، وباتت ليلتها ككل ليلة على صوت الحفلات الصاخبة التي يحييها والدها كل يوم.

في اليوم التالي..

جلست على السلم مكانها المفضل، وانتظرته ليخرج وما إن أطل حتى حاولت الهروب منه لكنه تبعها وأمسكها، وسألها ما بها؟

حاولت إخفاء ما تشعر به، ولكنها ردت عليه بسؤال، فسألته عن غن تلك الفتاة التي كانت ترافقه بالأمس.

فأخبرها أن هذه الفتاة تكون ابنة خالته، وهما كالأخوة يحبان بعضهما البعض حب الأخ لأخته.

ابتلعت ريقها وابتسمت، سُر "مكسيم" بغيرتها فهو يعلم ما تشعر به، وراح يبتسم ابتسامة تفاخر بنفسه، مسك يدها وقبلها، ومن بعدها غادر وحمل قلبها معه، وبقيت هي تراقبه من بعيد حتى غاب عن نظرها.

ومنذ ذلك اليوم تبدّل كل شيء في داخلها، إذ تملّكها شعور بالسعادة لأنه أخيرًا شعر بما كانت تخفيه عنه، سطّرت لحكايتهما بداية جديدة، وأصبحت تنتظره كل يوم على الدرج، أما هو فلم يخيّب ظنّها قط ينزل من منزله في الموعد ذاته، كأن بينهما اتفاقًا صامتًا لا يخونه الزمن..

أحبها "مكسيم" وهي أحبته، وكان يحضر لها الورود كل يوم. وبعد أن لاحظت والدتها أنها تأتي كل يوم حاملةً الورود، سألتها عن مقدم الورود لها، فكذبت عليها وأخبرتها أنها تقوم كل يوم بجمع الورود من إحدى الحدائق القريبة.

لم تقتنع والدتها بكلامها، وقررت في أحد الأيام أن تراقبها. فعندما ظهر "مكسيم" حاملًا الورود، وأراد تقديمها لـحبيبته، ظهرت والدتها وتشكرته، وأخبرته أن "كارمن" ما زالت صغيرة على الورود وأنه يتوجب عليه قطع علاقته بابنتها. واكملت والدتها: نحن من طينة وأنتم من طينة أخرى، فنحن

المنسيون على هذه الأرض التي نعيش تحتها، وأنتم المذكورون فيها الذين تعيشون على ظهرها.

تنهدت "كارمن" من كلام والدتها فهي عرفت أن هذا الكلام يعني بعدها عمن أحبت، أما هو فلقد أصبح حزينًا متكتف الأيدي.

بعد ذلك بساعات دخلت والدتها لكي تتحدث معها فيما حدث، جلست بجانبها وأقتربت منها وقالت لها: هناك الكثير من الفروق الطبقية بين عائلتنا وبين عائلة "مكسيم" وإن كانتا العائلتان مسيحيتين إلا أن مسيحيي فلسطين يختلفون اختلافًا كثيرًا عن مسيحيي لبنان.

لم يكن كلام والدتها ذا قيمة بالنسبة لـها، وراحت تناقشها نقاش عاشقةٍ تحاول الدفاع عن حبها بشتى الطرق. وما أجمل دفاع العاشق عن حبه، فهو يستخدم كل الوسائل المتاحة وغير المتاحة لذلك.

يوم بعد يوم، كان "مكسيم" يمر ببطء شديد لعله يراها على الدرج إلا أنها كانت ممنوعة من الخروج من القبو بعد إصرار والدتها على عدم مغادرته.

تعلق "مكسيم" بـها أكثر وأكثر وصار يجلس كل ليلة يفكر بها ويفكر بالحياة التي تعيشها هذه الفتاة البريئة.

وبعد مدةٍ قصيرة، ذهب إلى والده لإخباره بقصته وما قالته والدتها.

تفاجئ والده بما يقول، ولكنه قال له: أن والدة "كارمن" كانت على حق، وأن هناك الكثير من الأمور التي يجب مراعاتها قبل التفكير بالارتباط بأية فتاة.

وأضاف أن تلك العلاقات من المستحيل أن يكتب لها النجاح، فالحب وحده لا يكفي للارتباط بأية فتاة.

لم يكن كلام والده مقنعًا بما فيه الكفاية بالنسبة له، واستمر في مجادلة والده وراح يقول له: أن الحب هو علاقة روحية التقاء الأرواح ببعضها البعض، وهذه العلاقة ليست علاقة تجارية تحكمها المصالح المتبادلة بين الطرفين.

بعد كلامه أصر والده على إنهاء الجدال، وطلب منه أن يترك هذه الفتاة وشأنها، ويخضع لما قالته والدتها.

رفض كلام والده وأصر على تكملة هذه العلاقة.

عندئذٍ أخبره والده بأنه سيقوم بنفسه بإنهاء هذه العلاقة وسوف يطلب من "كارمن" أن تدعه وشأنه.

حينها خاف على شعور "كارمن"، وتخوف من كسر قلبها، فأخبر والده أنه سيقوم هو بنفسه بقطع علاقته بـها.

مرت الأيام بسرعة، كانت قلوب العاشقين أسرع تهتف للقاء بعضهما البعض؛ إلا أن الحظ لم يحالفهما.

١٣ أبريل ١٩٧٥م.

لسوء حظهم، اندلعت الحرب الأهلية أو كما يسميها البعض حرب الآخرين على أرض لبنان، إثر حادثة وقعت في منطقة عين الرمانة حيث أُطلق النار على بيار الجميّل أثناء تدشينه لكنيسة هناك، لم يمر الأمر دون رد إذ بادر اليمين اللبناني إلى إطلاق النار على حافلة كانت تنقل مجموعة من الفلسطينيين إلى مخيم تل الزعتر في الجهة الشرقية من العاصمة ، ومنذ تلك اللحظة بدا أن لا مفرّ من الاصطفاف، فكل طرف اختار موقعه إما يسارًا أو يمينًا، إسلاميًا أو مسيحيًا، لبنانيًا أو فلسطينيًا، وهكذا، رُسمت خطوط النار وبدأت الحرب التي ستأكل الأخضر واليابس..

فاختار "جورج" أن يلتحق باليسار الذي كان يضم الفصائل الفلسطينية والجبهة الوطنية أو ما عرف بمعسكر المسلمين، وكان لابد من أن تتبعه عائلته بهذا الالتحاق.

لم يكن اختياره لهذا المعسكر عشوائيًا، فقد بنى اختياره بناء على الرابطة الوطنية التي تربطه بهذا المعسكر، فهو فلسطيني، وكان لا بد من أن يلتحق بأبناء بلده بغض النظر عن ديانتهم.

بدأت الحرب بوتيرة سريعة، وتم تقسيم بيروت إلى قسمين: شرقية وغربية.

كانت الغالبية العظمى من سكان بيروت الشرقية من المسيحيين، في حين أن الغالبية العظمى من سكان بيروت الغربية كانوا من المسلمين.

بدأت حملة الابتزاز والمضايقات من قبل الطرفين، وكان أثر ذلك انتقال بعض مسلمي الشرقية إلى بيروت الغربية ومسيحيي الغربية إلى بيروت الشرقية.

لما كان الأمر كذلك وإزاء خشية والد "مكسيم" على عائلته، قرر أن ينتقل مع مسيحيي الغربية إلى المنطقة الشرقية. رفض "مكسيم" فكرة والده، وقرر البقاء في المنزل، لكن بعد بكاء والدته ورفضها بقاءَهُ في المنطقة الغربية، قرر "مكسيم" أن ينتقل مع والديه وإخوته إلى المنطقة الشرقية. قاموا بتجهيز أغراضهم، وراح هو ينزل الدرج ببطء لعله يرى "كارمن" ليودعها إلا أن أمله لم يتحقق.

غادر تاركًا وراءه قلبه، ورحل بجسده إلى بيروت الشرقية، وقطن هناك مع عائلته.

علمت "كارمن" أن عائلة "مكسيم" غادرت المبنى، فطلبت من أهلها أن يغادروا أيضًا متحججةً أنهم مسيحيون وأن الغربية هي للمسلمين، ضحك والدها، وقال لها: إنك ما زلت صغيرة يا ابنتي. وأضاف بالقول: "صحيح أني عِرْبِيد، لكن قد أكون واعيًا أكثر من أولئك الذين يظنون أن هذه حرب إسلامية مسيحية، فهي في

حقيقتها حرب انتماء، انتماء للأرض، للعروبة، ولقضية فلسطين. إنهم يحاولون تضييع البوصلة، إنهاك المقاومة، وزجها في حروب داخلية لإضعافها وإشغالها عن مسارها الأساسي: تحرير الأرض الفلسطينية".

كان "جورج" برغم معاناته ورغم سلوكه السيء يؤمن أن هذه الحرب هي حرب بالوكالة يقوم بها اليمين اللبناني نيابةً عن العدو المحتل.

مرت الأيام، واصطف المحاربون كل منهم في جبهته، والتحق "جورج" بصفوف الفصائل الفلسطينية أي بصفوف اليسار. أما "مكسيم" فلأنه في سن العشرين فالتحق بمحاربي جبهة اليمين.

وراح يدافع بكل ما أوتي من قوة عن هذه الجبهة، ومن دون رحمة بمعسكر اليسار كان إنسانا يعيش بدون قلب بعد أن ترك قلبه وديعة لدى "كارمن".

وحين اشتدت الأزمة بعد أن أُخبر اليمين بقتل أربعة من عناصره في المنطقة الشرقية، قام محاربو اليمين بقتل المئات من المسلمين الذين يعملون في منطقة الأسواق والمرفأ في المنطقة الشرقية، وبدأ القتل على الهوية، إذ لم تعد البطاقة الشخصية مجرّد وثيقة رسمية، بل أصبحت بمثابة حُكم بالإعدام فهي تحمل مذهب صاحبها وطائفته وكأنّها تُفصح عن موقعه

في معركة لم يختر أن يخوضها، إزاء تلك المجزرة المروعة التي عُرفت لاحقًا بـ(السبت الأسود) جنّ جنون قوى اليسار الذين اعتبروا ما حدث إعلان حرب لا يمكن السكوت عليه، فجاء الردّ سريعًا وتمثّل في محاولة استعادة السيطرة على المنطقة التي وقعت فيها المجزرة، أي منطقة المرفأ، باعتبارها رمزًا للمواجهة، وبداية لردّ دموي مفتوح على الجميع..

شارك "جورج" مع مقاتلي اليسار في هذه المعركة أي ما عرف بمعركة الفنادق، وكان في الجهة المقابلة "مكسيم" بوصفه أحد مقاتلي اليمين اللبناني.

وفي إحدى المعارك، وأثناء اقتحام مقاتلي اليمين ومن بينهم "مكسيم" إحدى الترسانات لمقاتلي اليسار وجود "جورج" في هذه الترسانة.

وبعد تجريد "جورج" من سلاحه، طلب أحد مقاتلي اليمين من "مكسيم" قتل "جورج"، فرفض متحججًا أن "جورج" مسيحي، وطالب مقاتلو اليمين بإطلاق سراحه بعد تهديدهم بأنه سوف يطلق النار عليهم إذا لم يفعلوا.

بعد رد وصد، أطلق مقاتلو اليمين سراحه وطلبوا منه المغادرة إلى منزله وبعدم المشاركة في هذه الحرب.

عاد "جورج" إلى القبو الذي يقطن فيه، وأخبر زوجته و"كارمن" بما قد حدث.

سُرت "كارمن" بما سمعت من والدها، وتيقنت حينها أن "مكسيم" يحبها كما تحبه.

أمضت ليلتها سعيدة فرحه ترقص وتنددن لأن والدها كان قد نجا، وأخرى لأنها تيقنت من حب "مكسيم" لها، ومرت أيام وأيام والحرب ما زالت مستعرة.

وفي أحد الليالي، دعا والدها أصدقاءه إلى السهر معه في القبو، فحضروا وتم تقديم المشروبات الكحولية لهم.

وبعد أن ثملوا، حاول أحد المدعوين الدخول إلى غرفتها فحاول التحرش بـها، ولكنها صدته مثلما فعلت في المرة الماضية، وهربت من القبو في منتصف الليل تاركةً إخوتها الصغار.

عاد هذا الرجل إلى السهر مع والدها، وبدأ يسكب لوالدها ووالدتها الخمر لكي يسكرهما.

وبعد أن نجح بإسكار "جورج" وزوجته، طلب من أحد أصدقائه المدعوين أن يرافقه إلى غرفة نوم الأطفال، فاستهجن صديقه من طلبه.

وما إن دخلا غرفة الأطفال حتى راح هذا الرجل يتحرش بأخوات "كارمن"، فحاول صديقه صده عن فعل ذلك إلا أنه لم يفلح.

عندئذٍ قال المتحرش لصديقه: إن "جورج" عميلٌ لليمين وأن كل ما كانوا معه في الترسانة قد قتلوا إلا هو.

وأكمل: هل هذه صدفة أن يموتوا جميعًا ويعود هو سالمًا؟
"حاول صديقه ثنيه عن جريمته، قائلاً له: لا ذنب لهؤلاء الصغار إن أردت الانتقام فاجعل هدفك هو "جورج" فقط.
لكنه كان أعمى البصيرة لا يرى أمامه سوى نار الانتقام التي محت من طريقه كلّ صوتٍ للعقل أو الرحمة، أصرّ على المضيّ في فعلته الشنيعة غير آبه بأي صوتٍ يعترضه وارتكب جريمته البشعة باغتصاب شقيقة كارمن الصغيرة التي لم تكن قد أتمّت عامها الثامن بعد.
عادت "كارمن" إلى القبو، فوجدت أختها تنزف بشدة، وقد مزّقها الألم والخذلان.
حاولت إنقاذها وإسعافها بكل ما تملك من أمل لكن القدر لم يمهلها؛ ففاضت روح الصغيرة بين يديها وماتت على أرضٍ لم تعرف لها الأمان يوماً..
كانت الصدمة فوق كل توقّع لم تكن في الحسبان أبدًا.
عمّ الذهول أرجاء القبو، فأصبحوا تائهون، بعد أن رحلت ابنتهم الصغيرة إلى الأبد دون وداع.
أما "كارمن" فقد انكسرت روحها؛ لم تعد تلك الفتاة الصلبة، بل أصبحت ظلًا باهتًا لنفسها تحمل ذنبًا لم تقترفه وألمًا لا تقدر على نسيانه..

ولكنها راحت تلقي اللوم على والدها ووالدتها، وتتهمهم بأنهم هم من قتلوا أختها بفعل أفعالهم الضالة المتمثلة بالسكر والسهر وتعاطي المخدرات، ولأنهم لم ينتقلوا إلى المنطقة الشرقية للعيش في وسط المسيحيين.

طلبت منهم الانتقال إلى المنطقة الشرقية للعيش هناك وسط المسيحيين، إلا أن والدتها كان لها رأي آخر، فطلبت من زوجها الانتقال إلى قرية دير القمر في الشوف التي يقطنها المسيحيون ويعيشون فيها بسلام.

وافق "جورج" زوجته على طلبها، وجمع أمتعته للانتقال إلى دير القمر.

طلب من زوجته إخفاء الهويات الشخصية الخاصة بهم، وفعلت ما طلبه زوجها منها.

وفي كل مرة يعترضهم فيها أحد الحواجز التابعة لليسار، يرد عليه بأنه فلسطيني تم تهجيره من المنطقة الشرقية وأنه وعائلته لا يمتلكون أوراق ثبوتية.

واستمر الحال هكذا حتى وصلت العائلة إلى دير القمر، وهناك استوقفهم بعض العناصر المسلحة التابعة لليمين اللبناني المتواجدين داخل القرية لحمايتها من محاولات اقتحام اليسار لها.

وعند سؤاله عن هويته أبرز "جورج" هويته، ومن خلال اسمه

تمكن المسلحون من التعرف على ديانته وأنه مسيحي. عندئذٍ سمحوا له بدخول القرية مع عائلته.

توجه هو وعائلته إلى كنيسة سيدة التلة الكائنة في هذه القرية. وعندما وصل إلى هناك، توجه إلى ممثلي الكنيسة، وسرد لهم قصته، وأنه يريد مأوى له ولعائلته في هذه القرية.

فتمكن ممثلو الكنيسة من تأمين ملجأ لـه ولعائلته في أحد المرافق التابعة للكنيسة.

كانت الحياة في دير القمر تختلف اختلافًا كليًا عن الحياة في بيروت، وكأنهم يعيشون في بلدٍ آخر.

فتحتوي هذه القرية على مناظر طبيعية خلابة وبيوتها حجرية قديمة، كما تحتوي هذه القرية على مسجد الأمير فخر الدين الذي يعود بناؤه إلى القرن الخامس عشر، فضلًا عن قصر الأمير "يوسف شهاب" المبني في القرن السابع عشر والعديد من المعالم السياحية التي كان يقصدها السياح عبر التاريخ.

فكان لهذا الجمال أثر في نفس "كارمن"، فالجمال لا يحب إلا ما يشابهه، كالمثقفين الذين لا يخالطون إلا أمثالهم، وأصحاب المال الذين لا يتزوجون إلا من هم يتساوون معهم.

وفي أحد الأيام،

كانت "كارمن" تقطف بعض الزهور من الحدائق المحيطة بالكنيسة سمع صوتها شابٌ صودف مروره من هناك. فاستوقفه صوتها، وراح يستمع إلى عذوبته وحنانه.

وما إن انتهت حتى اقترب منها وقال لها: في صوتك شيء مختلف لعله حنانك الزائد، أو الاشتياق المصحوب بالانتظار، فيه بحةٌ لم أسمعها قبل ذلك من عمالقة الغناء.

هنا تذكرت "كارمن" "حبيبها"، وقالت في صدرها: لقد صدق هذا الشاب، فالاشتياق نزيف القلوب، وما البحة التي تصدر منه إلا أنينها.

نظرت إليه وسألته عن عمله ولماذا أتى إلى هذا المكان؟ فأخبرها بأنه عازف ناي، وأتى لأنه يسكن في هذه القرية، وأنه خرج للجلوس في البراري ليقوم بالعزف.

طلب منها مرافقته، إلا أنها رفضت.

فسألها عن منزلها، فأخبرته بأنه تسكن وعائلتها في أحد المرافق التابعة للكنيسة.

وبعد مرور ثلاثة أيام على هذا اللقاء، حضر مرة أخرى إلى منزلها وعرض عليها أن تحيي معه إحدى الحفلات لكي تزيل أثر الخوف والهم من قلوب سكان القرية بفعل الحرب.

وبعد أخذ رأي والديها، وافقت على عرضه، وقامت هي وهذا الشاب بالتحضير لهذه الحفلة.

تمت دعوة أهل القرية لحضور هذه الحفلة الغنائية، واستجاب الأهل لهذه الدعوة.

فحالتهم بفعل هذه الحرب كانت كحال شخص ينتظر موته، حال شخص يخاف من خياله ويحسب خطواته خطوة بخطوة.

أحيت "كارمن" ومن معها حفلةً استثنائيةً، جعلت المكان ممتلئ بالحيوية والسعادة، حتى اتخذ الفرح موطئًا في قلوب كل الحاضرين.

إلا أن أحدهم بدا يعحب بكارمن ذاتها.

شاب يُدعى "أديب" لم يقدر على أن يُخفِي انبهاره حين وقعت عيناه عليها، فأعجب بها وجمالها حتى صوتها، ذاك الصوت الذي بدا له وكأنه يروي شيئًا فيه من الوطن والحنين أكثر مما فيه من الغناء.

فهو شابًا بهيّ الطلعة أنيقًا دون تكلّف طويل القامة كجذع نخلة تعانق السماء عيناه تحملان عمقًا يشبه الليالي الفلسطينية وملامحه تتوشّح بجدٍّ أصيل وكأنها حكاية من الجبل.

برغم أنه فلسطيني الأصل، إلا أن عائلته كانت من أوائل من استقرّوا في "دير القمر" منذ سنوات بعيدة لا من أولئك الذين دفعتهم الحرب إلى المنفى كما حدث مع كارمن وعائلتها.

سأل أصدقاءه عنها، فأخبروه أنهم لا يعرفونها، وأنها من الأشخاص التي نزحت بفعل الحرب وأتت إلى دير القمر منذ فترة.

فقال لأصدقائه بأن هذه القرية الآن تستحق اسمها بعد أن قطنت فيها هذه الفتاة.
أقترح عليه أحد أصدقاؤه أن يسأل عازف الناي عنها، ففعل، ولكن عازف الناي لم يجبه، وطلب منه أن يدعها وشأنها، وأنها تخصه وهو على علاقة بها.
أحست "كارمن" بأن الحديث كان عنها، وما إن غادر "أديب" حتى تقدمت من عازف الناي، وسألته عما دار بينه وبين هذا الشاب الذي ما زالت لا تعرفه من حديث دار بينهم..
كذب عليها، وأخبرها أنه كان يتحدث معه في مسألةٍ شخصية إلا أنها لم تصدق ما قاله لها، فحاله كان مرتبكًا، وراح يتمتم مما أثار الشكوك حول مصداقية كلامه.
ولّد هذا الموقف فضولًا لديها والتي جعلتها تريد أن تعرف ما دار بين عازف الناي و"هذا الشاب" من حديث.

وبعد مرور أسبوع على هذه الحادثة، قامت هي ومن معها بإحياء حفلة أخرى في نفس المكان، وكان "أديب" حاضرًا أيضًا.
وعند الانتهاء من الحفلة، قام "أديب" بتقديم الزهور إليها..
التي قبلتها تحت أنظار عازف الناي الذي كان ينظرإليها نظرةً حزينه، كالطفل الذي لا يستطيع الدفاع عن لعبته التي تنتزع منه.

قبلت "كارمن" باقة الزهور منه وابلغها عن اسمه، كفنانة تقبل الزهور من معجبيها إلا أن قلبها ما زال متعلقًا بـ "مكسيم". عادت في هذه الليلة برفقة أهلها إلى منزلها، وسهرت طوال الليل تفكر في "مكسيم"، وتسأل نفسها عن حاله إذا كان ما زال على قيد الحياة أو أنه قد قتل كحال المئات الذين كانوا يقتلون كل يوم.

في نفس الوقت، كان يوجد شخصاً آخر يفكر فيها، "أديب" الذي أحبها كان ساهرًا في تلك الليلة يفكر فيها فقلبه هتف لها، وعيناه لم تعد ترى غيرها.

وفي الصباح دار حديث بينه وبين والده، أخبره فيه أن الكنيسة قامت بمنح النازحين مكانًا للإقامة في المرافق التابعة لها. سُر بما سمع، وراح يتمشى كل يوم في الأماكن القريبة من الكنيسة باحثًا عنها.

وفي أحد الأيام، وأثناء مروره صودف أنها كانت تقوم بقطف الزهور، فأقترب منها وبدأ في تقليدها بقطف الزهور لعله يجد سبباً يجعله يتحدث معها..

لم تلتفت له فغادرت الحديقة وعادت إلى منزلها. تفاجئ من تصرفها، فقد كان يعتقد أنها بمجرد قبولها للورود منه فهذا يدل على أنها قد وقعت في حبه.

كان كحال الكثير من الشبان العرب، الذين يظنون أن مجرد إبتسامة من فتاة تعني أنها وقعت في حبه.

لذا شعر بالحزن من تصرفها، وكأنها بغتته بطعنة في كرامته.

إلا أنه وأثناء جلوسه ليلًا، وقد كانت أعصابه قد هدأت بدأ يفكر بشكلٍ إيجابي خالقًا الأعذار لهذه الشابة، فتارةً يفكر في غرور هذه الفتاة التي يمنعها على أن تقوم بالمبادرة بفتح حديث مع شاب، وطورًا يفكر بالظروف السياسية والاجتماعية التي تعيشها البلاد التي قد تمنع الإنسان من إخراج مشاعره وحتى التعبير عن أحاسيسه.

عذرها وراح يتحدث إلى نفسه بكلامٍ فلسفي ويقول: إن الحروب لا تقتل الأجساد فقط، بل أنها تقتل الروح أولاً ، تلك الروح الطامحة إلى التمتع بالحياة.

ففي الحروب تغيب كل المشاعر الإنسانية التي أودعها اللّه في البشر، ويحل محلها مشاعر الوحوش المفترسة، التي تتخذ من الدماء عنوانًا للجمال.

ثم قال: "محقةٌ هي، فليس الوقت وقت مشاعر وأحساسيس"! وكأن للمشاعر وقتًا تظهر فيه، ويتوجب عليها الغياب في الأوقات التي نحددها!.

ولكنه لا يعلم أن قلبها متعلق بغيره، فقلبها ما زال ينبض باسم حبيبها "مكسيم" حتى بعد رحيله.

رغم ذلك، بقي "أديب" يتردد إلى الحواري طامعًا برؤيتها، محاولا التحدث معها لكي يبوح لها بحبه.

وفي كل مرة يراها فيها، كانت تتجاهله وكأنه غير موجود. رغم كل ذلك إلا أنه ظل يحاول لقائها، فهو كان مصر إصرار طفل على الحصول على لعبته.

وفي أحد الأيام وحين رأها تشجع وأوقفها في منتصف الطريق. ورغم محاولاتها للهروب منه إلا أنها لم تفلح في سعيها. فوقف أمامها وأخذ أنفاسه وابلغها أنه معجبٌ بها فهو يشعر أنه يحبها، فأخبرته بأنها مرتبطة عاطفيًا بشخص آخر.

اعتقد للوهلة الأولى أنها مرتبطة بعازف الناي إلا أن قالت له: أن حبيبها موجود في منطقة أخرى في بيروت الشرقية.

وما هي إلا لحظات حتى غادرت وظل هو واقفًا كالصنم مصدومًا بما سمعه منها.

شاهدت والدة "كارمن" ما حدث، وعند عودة "كارمن" إلى المنزل، وعند عودتها وجدت والدتها في انتظارها فقد رأتهم وهم يتحدثون معا فسألتها عما دار بينهم.

جلست على الكرسي القريب من الباب وخلعت حذاءها، ثم التفتت إليها وبدأت تروي لها ما دار بينهما.

سُرّت والدتها بما سمعت، وفرحت لأن ذلك الشاب معجب بابنتها،

لكنها لم تُخفِ عتابها لها على ما قالته له، معتبرة أن عليها أن تكون أكثر حذرًا في التعبير عن مشاعرها..

فبدأت تقول لها: إن "مكسيم" هو في عالم آخر، عالم لا يرحم، عالم لا يعرف إلا القتل والبغض، وتجردت منه كل مشاعر الإنسانية والحب أولها.

لم تثسر بما قد سمعته من والدتها، فقامت من مكانها لتوضيب المنزل.

حملت والدتهت الحديث كما قيل لها، وأفرغته في أذن زوجها، تذكر حينها الموقف الإنساني الذي فعله "مكسيم" معه، إلا أنه حزن على ابنته، وخاف عليها من مشاعرها تجاه.

فـ"مكسيم" أصبح محاربًا لا يرحم أحدا، وضع قلبه ومشاعره جانبًا، وحل مكانهما عقله الذي غسله معسكر اليمين الحاقد على كل من هو مُوالٍ لمعسكر اليسار.

ومضت الأيام، وبقيت "كارمن" حزينة بسبب انقطاع أخبار "مكسيم"، فكانت الحرب تبلغ ذروتها ويموت المئات، بل الآلاف بشكلٍ يومي.

وعلى أثر هذا القتل العشوائي الذي كان يحدث من قبل الطرفين تهجرت العديد من العائلات من بيروت إلى قرية دير القمر. كان من بين هذه العائلات أحد جيران عائلتها.

وعندما قام هؤلاء الجيران بزيارتهم، قامت والدتها بسؤالهم عن عائلة "مكسيم"، فأخبرتها جارتها بأن عائلة "مكسيم" يقطنون في بيروت الشرقية، وأن هناك بعض الناس الذين يتحدثون عن مقتل "مكسيم" من قبل جبهة اليسار في معركة الفنادق، إلا أن هذا الأمر ليس مؤكدًا.

استهوت هذه الإشاعة والدة "كارمن"، وعندما حضرت ابنتها، من الخارج، أخبرتها بأن "مكسيم" قد قتل في معركة الفنادق، دون حتى انتظارها تستريح..

عند سماعها لهذا الخبر بدأت تصرخ، بل وبدأت في البكاء تبكي وتناجي ربها صارخةً بالقول: لِمَ هذا يا إلهي؟

لِمَ هذا؟

هل مكتوب عليّ أن أحزن طوال عمري؟

أصابت بحالة نفسية بعد سماعها لهذا الخبر، فراحت تلطم ليلًا نهارًا في المنزل ولا تفارقه أبدًا.

حاولت والدتها تهدئتها، وجلست بجانبها وهي تقول لها: هذا قدر مكتوب، فروحه الآن في السماء.

ثم أكملت كلامها: ادعي له لعل اللّه يرحمه، ويتقبله من المرحومين.

شردت قليلاً وعادت بالذاكرة الماضي عندما كانت تقابله عند الدرج..

بعد عدة أسابيع، فاجأتها والدتها بإقامة عيد ميلادٍ لها، وقامت بدعوة بعض الجيران وكان من بين المدعوين "أديب".
كان يومًا مميزًا بالنسبة لها فقد بدت كأميرةٍ حقيقية بفستانها الأزرق الذي كان يلمع كالضوء ينعكس على وجهها فيزيده إشراقًا.
أما هو فارتدى بدلته المفضلة، وجاء يحمل بين يديه هدية بسيطة، وباقةً من أجمل الورود..
منذ ذلك اليوم لم ينقطع عن زيارة الحدائق المحيطة بمنزلها، وكأنه يطوف حول مكانٍ مقدس.
مرت عدة أيام ومن بعدها عادت "كارمن" إلى قطف الزهور من الحدائق المقابلة لمنزلها، رآها فأقترب وقطف لها زهرة جميلة حمراء اللون وقدمها لها، ثم قال لها: إن الزهرة للزهرة الحقيقة.
قبلت الزهرة منه بابتسامة بسيطه تحاول بها إخفاء ما تشعر..
رغم هذه الابتسامة البسيطة منها، إلا أنها جعلته يطير فرحًا لمجرد أنها قبلت زهرته.
عادت إلى المنزل حاملةً الزهور التي قطفتها في يد وزهرته في يدها الأخرى، وضعت زهورها في وعاء، وزهرته في وعاء آخر منفرد.
وبعد مرور يومين على وضع الزهور في الأوعية، لاحظت أن

زهورها قد ذبلت، في حين أن زهرته كانت ما تزال كما قد وضعتها في الوعاء، منتعشة، فتفاجأت مما حدث.

في اليوم التالي، رأته يتجول حول منزلها، فقالت له: أنا هنا.

فالتفت إليها وهو يقول لها: ومن قال لك أني أبحث عنكِ؟

ردت "كارمن" على سؤال "أديب" بالقول: بأن زهرته أخبرتها بأنه يبحث عنها.

استغرب كلامها وسألها: عن أية زهرةٍ تتحدث؟

فأجابته: إن الزهرة التي قدمها إليها، ما زالت منتعشة وهي من أخبرتها أنه في الخارج يبحث عنها.

أعجبت "كارمن" بـه إلا أن إعجابها لم يرتقِ إلى مرتبة الحب، فقلبها ما زال متعلقًا بـ "مكسيم" رغم الحديث عن موته.

بعد مرور فترة من الزمن، زاد عشقه لـها وقرر أن يتقدم لكي يرتبط بها.

فأخبر والديه بنيته الارتباط بـها، عارض والداه هذه الفكرة خصوصًا أن الظروف لا تسمح بذلك.

فكانت الحرب تستعر كل يوم، وتحصد العديد من الأرواح يومًا تلو الآخر.

وإزاء إصراره على الارتباط، وافق والداه..

فذهب والداه إلى منزل "كارمن"، وقاما بعرض الزواج عليها..

وافق والداها على طلب "أديب" وعائلته، ولكنهم طلبوا استمهالهم لحين عرض الموضوع على صاحبة الشأن. وبعد أن عرض والداها عليها الأمر سرحت بنظرها بعيدًا وغاصت في ذكرياتها مع "مكسيم".

فقلبها ما زال متعلقا به يأمل عودته ويترقّب وعده القديم لذا رفضت الارتباط بـ "أديب".

لكن قرارها لم يُرضِ والدتها التي انفجرت غاضبة تصرخ في وجهها معتبرة أن رفضها غير مقبول، خاصة في ظل ظروفهم الصعبة. فالزواج من شاب ميسور الحال مثل "أديب"، قد يكون مخرجًا لحياتهم الثقيلة، ومعونةً في معيشتهم.

وأمام إلحاح والدتها ودموعها،

عزمت "كارمن" أمرها، وأقنعت نفسها بقبوله...

علّها تنقذ أسرتها ولو على حساب قلبها..

لم تكون ظروف البلد بشكل عام وقرية دير القمر بشكل خاص بفعل بعض المناوشات التي تحدث بين فترة وأخرى مواتية لإقامة حفل زفاف لـ "كارمن" و"أديب".

لذلك تم إبرام الزواج في الكنيسة من دون حفل زفاف. انتقلت بعده إلى منزل "أديب" الذي كان يسكن مع والديه.

كان "أديب" عاشقًا لـها حتى بعد الزواج بها، عمل على إرضائها بكل السبل.

الفصل الثاني

رحيل

بعد ذلك بفترة سمع والد "أديب" بعض الأحاديث المتناقلة بين الناس حول نية اليسار اقتحام قرية دير القمر، خاف والده عليه، وطلب منه أن يحضروا أمتعتهم لينتقلوا إلى منطقة أخرى أكثر أمانًا.

وضبت "كارمن" الأمتعة بمساعدته واتفق والده مع سائق أجرة لينقلهم إلى بيروت الشرقية المكان الآمن للمسيحيين آنذاك.

طلب السائق مبلغًا خياليًا ووافق والده على ذلك.

ودعت "كارمن" أهلها وإخوتها، وكانت دموعها تنهمر على فراقهم، فراحت تشتم رائحة إخوتها واحد تلو الآخر وواحدة تلو الأخرى.

انطلقت الحافلة بـها ومن معها إلى أن وصلوا إلى أحد الحواجز التابعة لجبهة اليسار، فأخبرهم السائق أن كل من في الحافلة هم فلسطينيون.

سمح لهم المقاتلون الموجودون على الحواجز بالعبور حتى وصلوا إلى المنطقة الشرقية.

هناك قام مقاتلوا اليمين بسؤالهم عن هوياتهم الشخصية، فأخبرهم والده أنهم مسيحيون وهربوا من المنطقة الغربية.

سمح المقاتلون للحافلة بالمرور، واتخذا شقةً في منطقة الأشرفية مكانا لسكنهم.

مكثت "كارمن" ومن معها بضعة أيام في هذه الشقة، وكانت الحرب ما تزال دائرة بين جبهة اليمين وجبهة اليسار. ومع اتساع رقعة الاشتباكات وما خلفته من عمليات قتل بين الطرفين تولد الخوف لدى والد "أديب" على عائلته. سمع والده عن بواخر تقوم بنقل المدنيين الراغبين بالسفر إلى أوروبا.

فاستفسر والده عن هذه البواخر ومكان انطلاقها، وعزم النية على مغادرة البلاد.

وبما أن البواخر كانت ممتلئة بحيث لا وجود لسفرهم معا على متنها، طلب والده منه أن يغادر هو وزوجته على متن إحدى البواخر وأنه وزوجته سيقومون باللحاق بهم على متن الباخرة التالية.

ذهب "أديب" برفقتها إلى منطقة البور مكان وجود الباخرة، وهناك رأت "كارمن" "مكسيم" صدفةً.

صدمت "كارمن" بما رأته، فحاولت الاقتراب من "مكسيم" إلا أن "أديب" كان يمسكها بيدها.

حاول "مكسيم" هو الآخر الاقتراب للحديث إليها لكن خطواته توقفت بعد أن رآها تمسك بيد "أديب".

صعدت إلى الباخرة برفقة زوجها، ولكنها كانت ما تزال تلتفت إلى الوراء للنظر إلى "مكسيم" الذي كان هو الآخر ينظر إليها بحسرة.

غادرت الباخرة، وبقي كل منهما ينظر إلى الآخر حتى غابت الباخرة عن النظر، كان قلبها يتمزق كلما ابتعد عن حبيبها، وكأن المسافة بينهما تسحب أنفاسها قطعةً قطعة.

كان قلبها حزيناً على ما رأته، وزادت نقمتها على والدتها التي كانت السبب فيما تشعر به..

أما "مكسيم" راح يسأل عن وجهة هذه الباخرة، وعلم أنها متوجهة إلى قبرص، ومنها إلى إيطاليا وهناك سيتم نقل المسافرين إلى ألمانيا.

قال حينها "مكسيم"، سأعيش ليس من أجلي، بل من أجل أن ألتقيكِ مرة أخرى، ووعد عليّ أن أبقى محاربًا شرسًا ليس من أجل الانتصار في الحرب، بل من أجل أن ألتقيكِ مرةً أخرى. سأبقى وفيًا لحبك مهما طال الزمن، ومهما ابتعدت المسافات. سأبحث عنكِ، حتى لو بحثت عنك في أوروبا بأكملها، وسأقرع جرس كل باب حتى تفتحي لي، وأني على وعدي باقٍ طالما أن هذا القلب يدق وطالما أنني أتنفس.

استمرت الاشتباكات في لبنان، واستمرت الباخرة في السير إلى أن وصلت قبرص.

كانت حالتها النفسية صعبة ولاحظ "أديب" ذلك، فاعتقد أن حالتها هذه ناتجة عن مفارقة أهلها.

حاول أن يجعلها تهدأ، ويطمئنها أنهم سيكونون على ما يرام وأن الرب سيحميهم.

في هذه الأثناء، كانت شاردةً في البحر وأمواجه العالية، نادمةً حظها على ما قد حدث لها، وناقمةٌ على نفسها بما فعلته، راحت تصلي في قلبها لعل السفينة تغرق بهم وتموت هي وحدها.

وصلت السفينة قبرص، كانت قبرص آية في الجمال، وكيف لا وهي شبيهة لبنان بمناظرها الخلابة وطقسها المعتدل.

مكثا الإثنان، ثلاثة أيام لتقوم باخرة أخرى بنقلهما من قبرص إلى إيطاليا.

أمضت "كارمن" أيامها هناك بالتأمل في البحر ومناظر الطبيعة الخلابة، أما هو فكان يقطف لها الزهور كعادته ويقدمها لها، فهو لم يتوانَ عن قطف الزهور لها كل يوم صباحًا ويحضرها لها قبل أن تستيقظ من نومها.

وعندما حضرت الباخرة الثانية التي ستنقلهم إلى إيطاليا، امتنعت من الصعود إلى الباخرة، وطلبت منه أن يعيدها إلى لبنان.

رفض ما طلبته منه، وراح يتوسلها للصعود إلى الباخرة. في النهاية لم تجد حلاً يجعله يوافق على عودتها فصعدت إلى

الباخرة، وكانت تكتفي بالرد على كلامه معها بهز رأسها وبقولوبقوة أو لا.

بدأ يشعر بالملل من أفعالها لكنه بقي صابرًا لأنه يحبها، ولأنه مقدرًا لشعورها بغيابها عن أهلها وهجرتها لهم.

وصلت الباخرة إيطاليا الجميلة، فطلبت منه أن تذهب للتجول وحدها في إيطاليا.

خاف عليها لذا رفض في البداية، ولكن بعد أن توسلت إليه وافق..

ذهبت "كارمن" للتجول في مدينة ميلانو حاملةً جواز سفرها بيدها، أما هو "أديب" فكان يراقبها من بعيد خائفًا عليها.

وعندما رأت "كارمن" مكتب للسفريات دخلته، وطلبت من الموظف المختص أن يحجز لها إلى لبنان، لكنه رفض، وأبلغها أن هذا مستحيل، فلبنان تعد بلدًا غير آمن لذلك لا توجد رحلات إلى لبنان في هذه الفترة.

وبعد أن أنهى موظف الاستعلامات كلامه، وجدت "أديب" أمامها أخذها بيدها، وعاد بها إلى الفندق دون التفوه بكلمة..

باليوم التالي قرر أن يحجز لهما في الحافلة المتوجهة إلى ألمانيا عبر المرور بالنمسا.

ركبوا الحافلة متوجهان إلى ألمانيا، وكانت جالسة بجانب النافذة لا تفعل شيئًا سوى النظر إلى الطبيعة على جانبي الطريق.

واستمرت تنظر من النافذة طوال الطريق.

سهلت السلطات النمساوية مرور الحافلة من أراضيها إلى ألمانيا رغم أن معظم الركاب لا يمتلكون التأشيرات الخاصة لدخول ألمانيا.

وما إن وصلت الحافلة ألمانيا الغربية، حتى تفاجئت عندما سمعت مصطلح ألمانيا الغربية، وتذكرت لبنان الذي كان مقسما شرقية وغربية.

اعتقدت أن هناك حربا أيضًا دائرة في ألمانيا بين الشرقية والغربية.

فقالت لـ "أديب": لماذا هربنا إذن من لبنان طالما أن هنا أيضًا حربًا دائرة وألمانيا مقسمة إلى شرقية وغربية؟

ضحك لما قالته له وأخبرها أن ألمانيا مقسمة إلى دولتين مستقلتين، واحدة تدعى ألمانيا الشرقية وأخرى تدعى ألمانيا الغربية وأن كلتا الدولتين تعيشان بسلام.

وما إن نزل الركاب من الحافلة في مدينة ميونخ الواقعة في مقاطعة بافاريا حتى استقبلتهم السلطات الألمانية، وطلبت منهم أن يقوموا بتقديم طلبات لجوئهم في الدائرة الرسمية المخصصة لذلك وهي بوليس الأجانب.

قالت "كارمن": لاجئون نح... هنا وهناك.

لاجئون، وسنبقى لاجئين، تقذفنا الحياة من مكان إلى آخر.

ما أصعب أن تُجبرعلى مغادرة منزلك، فتصبح بلا قيمة، عبئًا على البشرية.

هذا يطردك، وذاك لا يعترف بك كإنسان، ويتمنى دفنك وأنت لا تزال حيًا.

لاجئون نحن على هذه الأرض، وكأن الأرض، بكل إتساعها، قد ضاقت بنا.

حزن "أديب" لما سمعه وقال لها: لعلنا نعود في يوم من الأيام إلى ديارنا.

ذهبوا إلى دائرة الهجرة أو ما يسمى ببوليس الأجانب الذي قام بإرسالهم إلى الأماكن المخصصة لسكن اللاجئين أو ما يسمى أماكن الانتظار ليتم فرزهم فيما بعد إلى المقاطعة التي تحددها دائرة الهجرة.

قامت الحافلة بنقل عدد من اللاجئين من دائرة الهجرة إلى المكان المخصص لإقامتهم فيه.

كان هذا المكان عبارة عن فندق مخصص لاستقبال اللاجئين، كان كالسجن، تحيط به الشرطة من كل النواحي.

هناك قدم موظفو الفندق غرفة خاصة لهما، وبعد إجراء الفحوص الطبية اللازمة، تم منحهم بطاقة لجوء.

وبعد أن استلمت "كارمن" بطاقة اللجوء، ضحكت بطريقة هستيرية، فأثار ذلك "أديب" متسائلًا عن سبب ضحكتها بهذه الطريق الهستيرية.

فأخبرته أنها ستخبره لاحقًا.

ثم قام الموظفون بالشرح لهما عن النظام المتبع في هذا المكان، وتحديدًا مواعيد الدخول إليه والخروج منه ومواعيد تقديم الطعام المقدم من دائرة اللجوء ومكانه.

وعند مغادرتهما الغرفة، عاود "أديب" سؤاله عن سبب ضحكتها الهستيرية.

فردت "كارمن": إن هذه البطاقة أصغر حجمًا من البطاقة الأخرى.

لم يفهم مقصدها وطالبها بالشرح أكثر.

فأخبرته أن بطاقة اللجوء الألمانية أصغر حجمًا من بطاقة اللجوء التي منحتنا إياها المنظمة الدولية المعنية باللجوء في لبنان.

وأردفت قائلة: صدق المثل القائل بأن من خرج من داره قل مقداره.

توجها الزوجان إلى غرفتهما لأخذ قسطًا من الراحة قبل حلول موعد الغداء.

وعند حلول موعد الغداء، خرجوا من غرفتهما وتوجها إلى الباحات المخصصة لتقديم الطعام.

كان الطعام متنوعًا، ويراعي ديانة الشخص، فهناك من

المأكولات المخصصة للمسلمين أو الأطعمة التي لا تحتوي على اللحم.

فذهب "أديب" وأحضر بعض الأطعمة له ولـه..

لاحظ أحد الجالسين أن "أديب" مسيحي لأنه أخذ جزءًا من الأطعمة المحرمة على المسلمين بحكم ديانتهم.

انتقل هذا الشخص حاملًا طعامه، وطلب الإذن منه بأن يجلس معهما على الطاولة.

سمح له بالجلوس وذلك بعد أن قدم كل الجالسين نفسه للآخر، فقد كان هذا الرجل مسيحيًا لبنانيًا، هاجر هو الآخر بفعل الحرب.

نشأت بينه وبين هذا الرجل صداقة إلا أن كلام هذا الرجل لم يكن يعجب "كارمن" خصوصًا أنه كان ينسب سبب اندلاع الحرب إلى المسلمين في لبنان أو ما يسمى جبهة اليسار.

وفي أحد الأيام وهم جالسون لتناول العشاء، راح هذا الرجل يتحدث بطريقة غوغائية عن الفلسطينيين ويحملهم هم والمسلمين سبب نشوب الحرب الأهلية في لبنان، فلم يرق هذا الكلام لأحد المسلمين اللبنانيين الجالسين في الطاولة الأخرى الذي كان قد سمع كلامه.

نهض هذا اللبناني المسلم من على كرسيه، وراح يجادله بنبرةٍ عالية حتى كادا أن يتضاربا.

فتدخلت "كارمن" وهي تصرخ وتقول لهم: كل منكم يلقي اللوم على الآخر وأن طائفته هي السبب في الصراع ونشوب الحرب في لبنان.

أليس من الواجب عليكم أن تتحدوا كمواطنين لنفس البلد، وتقوما بالصلاة معنا ليقوم الرب بحل هذا الصراع، ووقف الحرب التي لا تميز بين مسلم ومسيحي؟

ومن قال إن الحرب هي حرب إسلامية مسيحية؟ فهذه الحرب هي حرب مصالح وحب سيطرة من قِبل رؤساء الأحزاب على موارد البلد، فرفع بعضهم شعار الصليب وفي حين رفع الفريق الآخر شعار الهلال.

وأكملت كلامها: هذه الأديان كانت ذريعة اختبأت وراءها الدوافع الحقيقة لهؤلاء المجرمين، وأنهم نجحوا بتجييش الشعب واللعب فيه.

أعجب الطرفان المتخاصمان بكلامها، فقاموا بالاعتذار من بعضهم البعض وبتقبيل بعضهم البعض.

كلامها هذا زاد إعجاب زوجها بها.

وحفظت سره بعيدًا عن كل حسود.

لم تعلق على تلك الكلمات رغم جمالها الذي يلامس القلوب، فحالتها النفسية بعد سماع كلام الرجلين المتخاصمين زادتها سوءًا، فأيقنت أن قلوب معظم من عاش ويعيش في لبنان لم

تعد صافية كسمائه التي تبدل لونها بفعل الرصاص والقذائف التي تطلق سواءً من فُوهات البنادق أو من ألسنة قادة الميليشيات التي تدير هذا الصراع بين اللبنانيين.

قالت لنفسها: في الحروب، يسقط كل شيء: الحبِ، الإنسانيةِ، التسامح، الأخلاق، الدين، الاحترام والمودة. وفي المقابل تسود القيم الحيوانية التي تحكم الغابات من قتلٍ، إجرامٍ، تنكيلٍ بالجثث، وغدر. فيتحول المكان الذي تدور فيه الحرب إلى غابة، بل قد تكون الغابة أرحم، فيأكل الناس بعضهم البعض، ويسطو كل منهم على الآخر، وتقطع جسور الرحمة التي كانت تجمع بينهم.

التفتت بعد ذلك لزوجها قائلة: الحرب ليست إلا غسيل أدمغة يقوم بها من يريد أن يدمر هذا البلد أو ذاك، ويستخدم في سبيل ذلك مفاهيم مثل: حقوق الأقليات، الدين، العلمانية، السيادة وغيرها من المفاهيم، ويتخذ وسيلةً لتحقيق أهدافه تحريض المواطنين على بعضهم البعض، سواء عبر الوسائل الإعلامية أو غيرها من الوسائل الأخرى.

سرح "أديب" في كلامها، وراح يفكر عن أسباب اندلاع الحرب الأهلية في لبنان ويهز رأسه.

ثم سألها عن رأيها حول سبب هذه الحرب في لبنان، شرعت كلامها وهي تتغزل بلبنان، جماله، وشعبه الطيب، وتقول: ما هي

إلا أيادٍ خبيثة، وأفواه أفاعي ألقت بسمومها في عقول ذلك الشعب البسيط الذي غيب عقله بإرادته، وانطلق يفكر بدينه وديانته على حساب وطنه وولائه.

وما إن أنهت كلامها حتى أمسكها "أديب" بيدها، وتوجها إلى غرفتهما المقدمة من السلطات الألمانية.

مرت أيامٍ عديدة حتى تم فرزهم إلى مقاطعة أخرى في ألمانيا الغربية، فكانت هذه المقاطعة هي برلين التي كانت تنقسم هي الأخرى إلى قسمين: شرقية وغربية.

تم نقلهن إلى برلين الغربية حيث استكملوا إجراءات اللجوء هناك.

وهنا أيضًا طلبت منهم سلطات برلين الغربية أن يلتحقوا بمركز استقبال اللاجئين، أي المركز المقدم من قبل السلطات الألمانية ليسكن فيه اللاجئون إلى أن يُبِتَّ القضاء بطلب لجوئهم الذي قد يستغرق وقتًا قد يتجاوز السنتين.

في هذه الفترة، تعرفت "كارمن" على بعض اللاجئين المقيمين هناك، والذين تهجروا من لبنان بفعل الحرب.

كان من بين هؤلاء اللاجئين "سارة" وهي فلسطينية مسلمة كانت تقيم في مخيم تل الزعتر في لبنان قبل مجيئها إلى ألمانيا، فنشأت بينهما صداقة متينة، وأصبحوا تقضيان وقتهما سويًا.

وفي هذه الأثناء، استفسر "أديب" عن كيفية سير هذه البلاد، فعرف من أحدهم أنه يمكن أن يقدم طلبا للانتقال من مركز استقبال اللاجئين إلى شقة خاصة بهم.

فقدم طلبه لدى القسم المخصص لذلك، وبعد عدة أشهر قام القَيِّمُون على هذا القسم بتقديم شقة له ولزوجته في أحد أحياء برلين.

انتقلوا معا إلى شقتهما المقدمة من قبل دائرة الشؤون الاجتماعية، واشترى "أديب" الأدوات اللازمة للاستخدام في المنزل.

وبعد توضيب شقتهما، قضيا معظم وقتهم في التجول في الطرقات للتعرف على معالم هذه المدينة الجميلة التي كانت ما تزال تحتفظ بأبنيتها القديمة رغم تدميرها في الحرب العالمية الثانية من قِبل الروس، والأمريكان والفرنسيين.

وأثناء سيرهما في أحد الشوارع، أحست "كارمن" بدوار، وكادت أن تقع أرضًا.

لاحظ "أديب" أنها متعبة، وطلب منها أن يأخذها إلى الطبيب، اصطحبها إلى الطبيب الذي أجرى الفحوص الطبية اللازمة لـها..

وبعد صدور نتيجة التحاليل، أبلغه الطبيب أن زوجته حامل.

فرح بما سمع، في حين أن هذا الخبر لم يكن سارًا لـ "كارمن" وأحست بغصة في قلبها.

أصبح "أديب" يهتم بـها أكثر من اللازم، فيمنعها من رفع الأشياء الثقلية ويقوم هو برفعها بدلًا عنها.

أحس "أديب" أن النقود التي ثقدم من قِبل السلطات الألمانية لن تكون كافية وخصوصًا أنه سيرزق في المدى القريب بولد، فقرر أن يبحث عن عمل.

وبعد سؤاله العديد من المطاعم، قبل أحد مدراء المطاعم أن يعمل لديه، ولكنه اشترط أن يقوم "أديب" بالحصول على الإجازة الخاصة للعمل من قِبل السلطات الألمانية.

بعد تقديم طلبه إلى السلطات المختصة، وافقت على السماح لـه بالعمل، فرح بقرار السلطات، وأصبح يذهب إلى عمله بشكل شبه يومي.

قضت "كارمن" معظم وقتها في الشقة الخاصة بهم، تقوم بتنظيفها وتحضر الطعام لـه، وانتظاره كل يوم لأن يعود لتقوم بتناول الطعام معه.

مرت الشهور سريعاً وجاء اليوم التي رزقت فيه بابنها الأول الذي أسمته "إلياس"، وأصبحت تهتم به كأية أم شرقية.

كانت "سارة" تزورها باستمرار، فتقوم بالاطمئنان عليها وعلى ولدها.

استمر الوضع على حاله لفترة، فعاشت حياة روتينية؛ ربة منزل لا تقوم سوى الاهتمام بمنزلها وبولدها وكانت لا تتوانى على

الاطمئنان على عائلتها في لبنان التي كانت لا تزال تعيش ويلات الحرب الأهلية.

وفي كل مرة تقوم بالاطمئنان عليهم، تحاول أن تستدرج والدتها لمعرفة أية معلومة عن "مكسيم".

كان "مكسيم" لا يغيب عن بالها، بل إنها كانت قد حلمت بقدومه في أكثر من مرة.

وفي كل مرة، كانت تحلم هي به، كان "مكسيم" يتذكرها ويتساءل عن مكانها.

وأثناء عمل "أديب" في المطعم، سمع زملاءه في العمل يتحدثون عن كيفية تقديم طلبات للحصول على الإقامة الألمانية، فاستفسر منهم عن الشروط اللازمة لتقديم الطلب، فقرر أن يذهب لتقديمها بعد أن جمع كل الأوراق اللازمة لهذا الطلب.

بعد ذلك بعده أيام: كان يتفقد البريد فوجد رسالة من دائرة الهجرة تطلب منه أن يأتي برفقة عائلته إليهم..

فذهب "برفقة زوجته وابنهما وهناك قامت السلطات المختصة بمنحهم حق الإقامة على الأراضي الألمانية.

وما هي إلا شهور معدودة حتى رزقت "كارمن" بابنتها "جوليا"، التي كانت تشبه والدتها كثيرًا.

ورغم انشغال "كارمن" بعائلتها إلا أنها ما زالت تحن إلى حبها الأول..

كانت الأوضاع في لبنان، هدأت بعض الشيء، فطلبت منه أن تذهب لزيارة عائلتها في لبنان، لكنه رفض متذرعًا أن هذا الهدوء هو هدوء نسبي وأن الحرب لم تنتهِ بعد.

بدأت تتضايق منه لأنه أصبح في تلك الفترة لا يأبه لشيء سوى لعمله، فأهمل بيته وزوجته ساعيًا إلى البحث عن العسل المر"المال" كما يسميه..

فكان يقضي معظم وقته بين العمل وبين دعوة أصدقائه للعب الورق في منزله بحضورها حتى هي بدأت تشاركهم في اللعب.

وفي أحد الأيام، قررت دعوة صديقتها "سارة" وزوجها لزيارتهم، فقبلت صديقتها الدعوة.

باليوم المحدد حضرت برفقة زوجها لزيارة "كارمن" وزوجها، وأصبحت هي وزوجها تترددان إلى منزل "كارمن"، فتوطدت العلاقة بين ازواجهما وتحولت لصداقة حميمة.

وفي أحد الزيارات حضرت "سارة" مع زوجها"يوسف" إلى منزل "كارمن" وكان يرافقهم في هذه الزيارة "أمجد" الذي بينه وبين زوجها صله قرابة..

كان "أمجد" شابًا في مقتبل العمر، متيما في النساء الجميلات.

وأثناء لعبهما الورق راح "يوسف" يذكر علاقاته الغرامية للحاضرين، فبدأ يتفاخر بنفسه، وبأنه أقام علاقات لا تعد ولا تحصى مع النساء سواء الغربيات أو من هن ذوات أصولٍ عربية.

ابتسم "أديب" له، ولكنه لم يعطيه اي انتباه والتفت بعدها إلى "يوسف" وعرض عليه أن يقوم بالعمل معه في نفس المطعم، فوافق "يوسف" الذي كان في ذلك الوقت عاطلًا عن العمل. وباليوم التالي قدم على العمل وتم الموافقة عليه ومن يومها ازدادت علاقتهم متانة، فبدأ "أديب" يتحدث لـه عن علاقته مع زوجته، وراح يشكو له مشاكله معها وأن حياتهما أصبحت روتينية مملة.

بعد مرور فترة وجيزة أصبح "أديب" في المطعم الذي يعمل به الآمر الناهي، حيث أوكل إليه صاحب المطعم إدارته، ومنحه الصلاحيات الكاملة لذلك.

كان لهذا الأمر أثر في نفس "يوسف"، فتولد لديه الحقد على صديقة الذي أصبح رئيسه، ولكن ذلك كان بدون أن يُشعره بشئ، رغم أن "أديب" كان يميزه عن بقية العاملين في المطعم. عندئذٍ قرر "يوسف" الانتقام منه بكافة الطرق، وطرأت في رأسه فكرة أن يقوم بدمار حياته العائلية.

فطلب "يوسف" من "أمجد" أن يقوم بمغازلة "كارمن" لكي تقع في حبه.

فكثرت زيارات "يوسف" وزوجته برفقة "أمجد" إلى شقة "أديب"، وراح "أمجد" يغتنم كل الفرص للتقرب من "كارمن" ولكنها كانت تقوم بصده.

هنا جاء دور "يوسف" بأن يحصل على المعلومات الشخصية المتعلقة بـ "كارمن"، فراح يسأل "أديب" عن مشاكله وعن الأشياء التي تحبها والأشياء التي تكرهها في الشخص.

جمع "يوسف" كل المعلومات المطلوبة عنها وقدمها إلى "أمجد" الذي استغلها للإيقاع بـ "كارمن".

فكان "أمجد" ينتظر خروجها كل يوم لتقوم بتوصيل أطفالها إلى المدرسة ليقوم بمغازلتها، ويقدم لها الورود، ويقضي لها كل احتياجاتها من دون علم "أديب".

وبعد ازدياد مشاكل "أديب" معها وعدم اهتمامه بها، أصبحت تتقبل أفعال "أمجد".

وفي أحد الأيام، كانت المشاكل بينهنا تبلغ ذروتها، شاهدت "أمجد" ينتظرها في الطريق بعد أن قامت بتوصيل أطفالها إلى المدرسة، فعرض عليها أن تشرب معه القهوة وأن يستضيفها في منزله.

ترددت في البداية، إلا أنها أمام إصراره وافقت على احتساء القهوة معه في شقته.

وعند وصولهم شقته دخل إلي المطبخ أما هي فنزلت في انتظاره على الأريكة تشاهد التلفاز فقام بتحضير القهوة، وأضاف إليها بعد الحبوب المنومة وقدمها إليها..

شربت القهوة وما هي إلا لحظات حتى نامت فقام باغتصابها، وعندما فاقت وجدت نفسها عارية راحت تلطم على وجها، وأمسكت بملابسه وظلت تتضربه بكل ما أوتيت من قوة، فحاول أن يجعلها تهدأ ألقاها على السرير وهو يخبرها بصوت حاد أنها فعلت ذلك بإرادتها ونامت وهي تشرب القهوة معه.

لم تصدق كلامه، لكنها لم تكن تعرف أنه قد وضع لها الحبوب المنومة في القهوة.

غادرت شقته وتوجهت إلى شقتها، إلا أن "أديب" كان لا يزال نائمًا، فدخلت "كارمن" واستحمت قبل أن يستفيق "أديب".

أصبحت تخون زوجها في كل مرة تتعارك فيها معه مبررةً فعلها بتقصيره اتجاهها.

استمرت الأوضاع على هذه الحالة حتى إن حدث سوء تفاهم بين "أديب" و"يوسف" في العمل.

هنا أخبر "يوسف" العاملين معه ومع "أديب" أن زوجة "أديب" تخونه مع "أمجد".

حمل أحد العمال هذا الخبر إلى "أديب" الذي استشاط غضبًا، وراح يتهجم عليه ليضربه، ولكن العمال أبعدتهما عن بعضهم البعض.

ذهب "أديب" إلى المنزل غاضبًا، وكانت "كارمن" تتمدد على

الأريكة وجدت الباب يفتح وسمعت زوجها يصرخ عليها ويقول: لِمَ فعلتِ ذلك؟

لم تفهم في البداية ما يقصده حتى واجهها بصراحة، وسألها عن سبب خيانتها له مع "أمجد".

فهمت سبب صراخه فجلست مكانها وبلعت ريقها وحينها تحججت بإهماله لها ولأطفالها وأنه يراعي عمله على حساب بيته.

بكى بحرقة، وراح يقول: إنه يعمل كل وقته وعلى حساب راحته الشخصية لكي يقدم لها ولأطفاله مستقبلا أفضل.

أصر على أن يطلقها رغم أنها طلبت منه أن يسامحها، وأنها لن تفعل ذلك مجددًا.

هنا ذكرها "أديب" بتاريخ والدتها وبخيانتها لوالدها، وقال لها: كيف للمرء أن يثق بمن خانه، فالذي يخون مرة قد يخون كل مرة؟

رفع "أديب" دعوى تطليق أمام المحاكم الألمانية التي قبلت دعواه، وحكمت بحضانة الأولاد بالمناصفة بينه وبينها..

ولكنه رفض التنازل عن شقته لـها ولأطفاله..

انتقلت "كارمن" للعيش في فندق مؤقت قدمته لها دائرة الشؤون الاجتماعية في برلين إلى حين أن تقوم بإيجاد شقة تأويها هي وأطفالها.

وبعد مرور فترة من الزمن، وبعد مساعدة قُدمت من قبل "سارة" التي لم تنقطع علاقتها بـها، تمكنت "كارمن" من الحصول على شقة صغيرة لها ولاطفالها.

وعند انتقالها إلى شقتها الصغيرة راحت تهتم بأطفالها، فتقدم لهم كل ما تيسر لها، مستندةً على المساعدات المقدمة من الدولة الألمانية.

لم تكن المساعدات المقدمة من الدولة الألمانية تكفها هي وأطفالها، فقررت أن تبحث عن عمل يُدِرّ عليها بعض النقود، فساعدها أحد الأشخاص على العمل كنادلة في أحد المطاعم، وراحت تعمل بشكلٍ يومي في هذا المطعم.

فتبدلت حياتها التي كانت مملة، وأصبحت مشغولة طوال الوقت، فتقوم صباحًا بالاعتناء بأطفالها، وفي المساء تذهب لعملها.

لم تنقطع علاقة "أديب" بأطفاله، فكان يستضيفهم دائمًا في منزله في نهاية كل أسبوع.

وفي أحد الأيام، وأثناء عملها في المطعم حضر مجموعة من الشبان العرب لتناول العشاء في المطعم الذي تعمل به.. فقامت بتقديم الطعام لهم، وكان من بين هؤلاء الشبان شاب يدعى "مؤمن" وهو لبناني من البقاع.

أعجب "مؤمن" بـها من أول نظرة، وتفاجأ عندما حدثته باللغة العربية.

قدم "مؤمن" لـها نفسه، وسألها عن جنسيتها.

فأخبرته أنها فلسطينية كانت تقيم في لبنان، وأن أهلها ما زالوا يعيشون هناك.

وما إن انتهى الشبان من تناول الطعام حتى طلب "مؤمن" الحساب، فقام بدفع الحساب ووضع لـها مبلغًا كبيرًا يكاد يتجاوز ثمن العشاء كإكرامية لها.

فرحت بالإكرامية التي قدمها لها وتشكرته على الإكرامية رغم تفاجئها بكبر المبلغ.

أصبح "مؤمن" يتردد على المطعم بشكلٍ يومي، يتناول العشاء ويحتسي المشروبات الكحولية، ويضع إكرامية لـها، ويغادر.

وفي أحد الأيام، طلب "مؤمن" منها مواعدتها، فأخبرته أنها ليس لديها متسعٌ من الوقت نظرًا لانشغالها بأطفالها.

اعتقد للوهلة الأولى أنها متزوجة، فاعتذر منها على طلبه، وقبلت اعتذاره.

انقطع "مؤمن" عن الحضور إلى المطعم فترة من الوقت، اما هي فبقيت تعمل كالمعتاد.

وفي أحد الأيام، حضر "مؤمن" إلى المطعم برفقة صديقه الذي كان يعرف "كارمن" من قبل، كان قد عمل في نفس المطعم الذي كان يعمل به "أديب".

وعندما رآها هذا الرجل تعرف عليها، فسألها عن "أديب" فأخبرته أنهما انفصلا منذ مدة وتعيش هي وحدها مع أولادها في شقة لوحدهم.

هز هذا الرجل برأسه، ظهرت الفرحة على وجه "مؤمن" بما سمع. طلب "مؤمن" العشاء له ولصديقه، وراح يسأل صديقه عنها وعن زوجها.

فأخبره صديقه أن زوجها كان يحبها كثيرًا، وأنه كان لا يوفر فرصة إلا ويتحدث عنها وعن جمالها، فكان صدمةً لي ما سمعته، فلم أكون أتخيل أن يقوم هذان الزوجان بالانفصال عن بعضهما البعض.

ابتلع "مؤمن" ريقه، وقال لصديقه: ولكن هذه أوروبا ففيها كل شيء يتبدل، وفي النهاية أن كل شيء ينتهي سواءً فرحًا أو حزنًا.

لم يفض صديق "مؤمن" في الحديث معه عن "كارمن"، وراحوا يتنقلون من حديث إلى آخر تخص أعمالا يقومون بها سويًا.

وبعد انتهاء سهرتهم، دفع "مؤمن" الحساب وكعادته وضع إكرامية بمبلغ كبير لـها..

خرج الصديقان من المطعم، وكان "مؤمن" بين الحين والآخر يلتفت وراءه ليرى جميلته التي كانت منشغلة بالقيام بعملها. وعند عودته إلى شقته، راح يفكر فيها، وأعجبته فكرة أنها انفصلت عن زوجها، فقرر أن يعاود المحاولة للإيقاع بها. فعاد يذهب بشكل يومي إلى المطعم الذي تعمل به، لا يفعل شيئًا سوى تناول الطعام، واحتساء بعض المشروبات ومراقبتها وهي تعمل.

لاحظت "كارمن" ذلك بأنه يراقبها في كل خطوة تخطيها، لكن لم يكن لها ردة فعل تذكر فكانت تعامله كأي زبون يحضر إلى المطعم، وتقدم له طلباته من دون أن تكثر الكلام معه. وبعد تردده إلى المطعم بشكل زاد عن حده، وقيامه بالعديد من التصرفات غير المسؤولة كمغازلتها بشكلٍ فاضح أمام الزبائن، قام صاحب المطعم بالتحدث إليه وطلب منه الكف عن القيام بهذه التصرفات.

وإزاء عدم امتثال "مؤمن" لطلب صاحب المطعم وتهديد صاحب المطعم له بأنه سيقوم بالاتصال بالشرطة، تقدمت منه "كارمن"، وسألته عن حاجته ليكف عن القيام بحركات المراهقين.

أجابها بأنه لا يريد سوى رضاها عنه، فضحكت وأخبرته بأنها

ستكون راضية عنه إذا ما كف عن مغازلتها والتحرش بها أمام الزبائن.

هز رأسه ومنذ تلك اللحظة توقف عن هذه الأفعال الصبيانية، وطلب منها أن تقبل الدعوة لمواعدته.

خافت من رفض دعوته ولكيلا يكون الرفض سببًا لاستئناف مضايقاته لها، فقبلت دعوته، وأخبرته أنهما قد يتفقان في الأيام المقبلة على مكان وزمان اللقاء.

هدأ "مؤمن"، وأكمل سهرته ثم غادر المكان، وبقيت هي تقوم بعملها إلى أن انتهى دوامها.

وقبل مغادرتها المكان طلب منها مدير المطعم بالتحدث إليها، فجلست "كارمن" معه فراح يسألها عن "مؤمن" وأسباب تصرفه معها بهذه الطريقة.

أخبرته أنه كان قد طلب مواعدتها قبل فترة من الزمن إلا أنها قد رفضت.

لم يستفض المدير في الكلام معها، وأخبرها أنه لا يريد أن يكون هذا الفعل سببًا لحدوث المشاكل في المطعم، خصوصًا أن رواده معظمهم من الألمان الذين يعشقون الحياة الهادئة البعيدة عن المشاكل.

وعدته بأنها ستقوم بتسوية الأمور معه في أقرب فرصة ممكنة، وسُر المدير بذلك.

غادرت المطعم، وتوجهت إلى شقتها لتنام بين أطفالها.
بعد مرور يومان، حضر "مؤمن" إلى المطعم حاملًا بعض الورود، وقدمها إليها..
قبلت الورود منه، وطلبت منه أن يبقى هادئًا وألا يتصرف بحماقة كعادته، فوعدها بذلك.
وهي أيضاً وعدته أنه إذا ما وفّى بوعده ستقوم بمقابلته في نهاية الأسبوع.
وفي بوعده، جلس بهدوء ثم غادر بعد أن اتفق على لقائها في مكان حدداه سويًا.
ذهبت "كارمن" في نهاية الأسبوع إلى شقة "أديب"، وأودعت أطفالها هناك، وغادرت للقاء "مؤمن".
كان "مؤمن" ينتظرها في المكان المتفق عليه، وما إن حضرت حتى وقف، واستقبلها بحفاوة وبباقة زهور جميلة جدًا.
جلسوا على دكه بالحديقة بجانب بعدهما فبدأ يحدثها عن حياته، ووضعه العائلي وسبب هجرته، راح يحدثها على أنه معجب بها، بل إنه عشقها منذ النظرة الأولى..
بعد سماعها له أخبرته أنها أم لطفلين، وأنها تقوم برعايتهما وحدها، وأن ظروفها صعبة فهي تنفق على الطفلين كما أنها تقوم بمساعدة أهلها في لبنان بسبب الظروف المعيشية التي يعانون منها هناك..

وعدها بأنه سيقف بجانبها، ويساعدها في رعاية الأطفال والإنفاق عليهما وعلى أهلها في لبنان أيضًا.

بعد فترة من سلسلة لقاءات جمعت بينهما، عرض "مؤمن" الزواج عليها، ولكنها طلبت منه استمهالها في الإجابة على عرضه.

وفي ذات الليلة، وبعد أن عادت إلى شقتها بعد أن أوصلها وغادر، نزلت دموعها بعد أن تذكرت "مكسيم" حبها الأول، وبقيت طوال الليل تتذكر ملامحه وتسأل نفسها عن مكانه وحالته.

وبعد مرور عدة أيام وبسبب عدم إجابتة على عرض الزواج، ذهب "مؤمن" إلى المطعم الذي تعمل به،

هناك أخبرته أنها غير متحمسة للفكرة، وأنها منشغلة طوال الوقت بأطفالها ولا تفكر بالارتباط بأحد.

وبعد أن سمع ردها على طلبه، غادر من دون أن يلقي عليها السلام.

ومرت أيام وشهور، وانقطعت أخباره فهو لم يعد يأتي إلى المطعم..

أما المطعم فلقد أصبح صاحبه يعاني من مشاكل مادية نتيجة إدمانه لعب القمار، وتعرضه الكثير من الخسائر، وبعد قرار صدر من المحكمة، قررت المحكمة الحجز على

المطعم، واعتباره مفلسًا، وكان لا بد من صرف كل عماله، وكان من بينهم "كارمن".

كان الموقف صدمه لها ولكل من معها فلقد خسرت عملها، وراحت تعاني من ضائقة مالية كبيرة إزاء ازدياد مصاريفها سواءً الشخصية أو العائلية.

حاولت الحصول على عمل جديد إلا أن الظروف لم تساعدها.

وفي أحد الأيام، وأثناء جلوسها في أحد المخابز التي تقدم القهوة أو ما يسمى بالألمانية البكراي صودف دخول "مؤمن" إلى نفس المكان ليشرب بعد القهوة.

وما إن رآها "مؤمن" طلب قهوته حتى جلس معها على الطاولة من دون أن يستأذنها.

فتلك الجميلة باتت ترتدي ملابس غير مُنسّقة، حتى شعرها أصبح مرفوعًا بتوكة شعر عشوائية.

لم تتضايق من فكرة جلوسه، وإنما رحبت به، وسألته عن غيابه، وعن ظروفه حياته.

أخبرها أن رفضها الارتباط به كان السبب في عدم مجيئه إلى ذلك المطعم، ثم أضاف بالقول:

أجسادنا قد تغادر حفاظًا على كرامتنا، ولكن أرواحنا تبقى هناك.

فالغياب لا يُقاس بغياب الأجساد، وإنما بغياب القلوب.

فكم منا غادر بجسده مكانًا وترك روحه هناك...

سرحت بكلامه...

فردت عليه:

لقد صدقت، فالمهاجر يغيب عن وطنه بجسده، ولكنه لا يهاجر بروحه وقلبه.

فهو يحمل كل أمتعته، ويخلف وراءه أهم ما يملكه الإنسان وهو قلبه.

بعد كل هذا الكلام، أخبرته أن المطعم الذي كانت تعمل به قد أفلس، وهي أصبحت عاطلة عن العمل، وطلبت منه مساعدتها في الحصول على عملٍ جديد.

وعدها أنه سيهتم بأمرها، فشكرته وأبلغته أنها تأتي إلى هذا المخبز بشكلٍ يومي بعد أن تقوم بتوصيل أطفالها إلى المدرسة.

أصبح هو أيضاً يتردد على المخبز، ويجلس معها وهي لا تتوانى في سؤاله عن عمل لها، وهو كعادته يعدها بأنه سيهتم بالأمر.

مر ما يقارب شهرًا، وهي لا تزال عاطلة عن العمل لا تفعل شيئًا سوى احتساء القهوة والاهتمام بطفليها.

تفاقمت أزمتها المالية بشكلٍ كبير نتيجة زيادة التزاماتها تجاه أهلها الذي كانوا ما زالوا يعانون من ويلات الحرب الأهلية.

وفي أحد الأيام، وأثناء جلوسها معه أعاد "مؤمن" تكرار طلبه بالارتباط بها.

وبعد أن استعرضت "كارمن" ظروفها المادية والمعيشية واعتقادها أن حل كل مشاكلها سيكون بارتباطها بـه وافقت على طلبه.

سُر "مؤمن" بقرارها وقام بعقد قرانه بها لدى أحد رجال الدين من الديانة الإسلامية المتواجد في برلين.

انتقل "مؤمن" للعيش في شقتها وراح يساعدها في مصاريفها ومصاريف عائلتها في لبنان.

وعند سؤال "كارمن" لـه عن مصدر هذه النقود الكثيرة التي يحضرها كل يوم إلى الشقة، أخبرها بأنه يعمل في تجارة السيارات.

لم تقتنع بذلك، وأثار في قلبها الشك، خصوصًا أنه يعود بشكل شبه يومي إلى الشقة حاملًا الكثير من النقود.

رغم ذلك، لم تكن تأبه لمصدر هذه النقود، فاحتياجها لها قد غيب فكرها وعقلها، فهي لم تعد تفكر بشيء سوى كيفية سد احتياجاتها واحتياجات أهلها.

وفي إحدى الليالي، رأته أنه ليس في حالته الطبيعية ومنفعل بشكلٍ كبير، فسألته عن سبب انفعاله فصرخ بها.

وبعد أن صرخ، دخل إلى المرحاض، وأمضى بضع دقائق، ثم عاد، وجلس معها هادئا وكأنه شخص آخر.

استهجنت "كارمن" من ذلك، لكنها لم تعاتبه على فعلته، وطلبت منه بعض النقود، فأعطاها.

أخذت النقود ثم دخلت للاستحمام، فوجدت آثار مادة بيضاء على حوض المغسلة، فقامت بتنظيفها.

وعندما انتهت من الاستحمام، خرجت، وذهبت مباشرةً إليه وجلست بجانبه وسألته عن هذه المادة التي رأتها في حوض المغسلة.

ارتبك قليلاً وأجابها بأنه عند دخوله إلى المرحاض لم يلاحظ شيئًا على حوض المغسلة.

لم يكن كلامه مقنعًا لـها فبقيت تفكر ساعات طويلة بهذه المادة.

وما إن نام حتى راحت تتسلل إلى ثيابه تفتش بداخلها، وبعد أن قامت بتفتيش ثيابه، وجدت كيسًا صغيرًا فيه مادةً بيضاء.

فتحت هذا الكيس، واشمت ما بداخله لكنها لم تتعرف إلى هذه المادة.

فكرت بإعادة الكيس إلى مكانه، إلا أنها قررت الاحتفاظ به لتقوم بعرضه على إحدى صديقاتها.

فعلت ما كانت قد فكرت به، واحتفظت بالكيس، وقامت بتخبئته بعيدًا عن متناول يده..

في اليوم التالي، غادر "مؤمن" الشقة من دون أن يتفقد أغراضه، وما هي إلا دقائق حتى خرجت هي الأخرى من شقتها وراءه قاصدةً صديقة إليها.

أخبرت صديقتها بقصة الكيس، فاصطحبتها صديقتها إلى صيدلاني كانت تعرفه من قبل، وطلبت منه أن يخبرها عما هي هذه المادة الموجودة في الكيس؟

بعد أن قام الصيدلاني بتحليل المادة الموجودة في الكيس، أخبرهم أن هذه المادة هي مادة مخدرة، يتعاطاها الكثير من الناس وتسمى كوكايين.

فقدت "كارمن" عقلها عندما سمعت بذلك، وانهارت أعصابها، فأصرت صديقتها على توصيلها إلى شقتها.

وما إن وصلت إلى شقتها حتى نامت بعد أن قامت صديقتها بتزويدها بحبوب مهدئة.

وبعد عدة ساعات، استيقظت من نومها، وكان "مؤمن" قد حضر، فطلبت منه أن تتكلم معه إلا أنه أخبرها بأنه متعب وعليها تأجيل الكلام إلى اليوم التالي.

تركها ودخل يفتش على الكيس في أغراضه، فلم يجده. وأثناء تفتيشه، حضرت "كارمن" وسألته عما يفتش، فرد قائلًا لا شيء.

أخرجت "كارمن" الكيس من حقيبتها وقدمته لـه وقالت:

- ها هو..

نظر إليها "مؤمن"، وقبل أن يحاول أن يبرر، قالت له..

- أنت تتاجر في المخدرات، أليس كذلك..

كذب وقال لها: إن هذا الكيس ليس ملكه، وإنما هو لأحد أصدقائه الذي طلب منه أن يبقيه معه.

لم تصدقه كلامه فهو كان يبدو عليه الارتباك.

وأضافت بالقول: إن تجارة السيارات لا تدرّ كل هذه النقود التي تأتي بها يوميًا إلى المنزل.

راح يصرخ بكل صوته يقول: نعم أنا تاجر مخدرات، نعم أنا تاجر مخدرات.

وتابع كلامه بالقول: أنظري من حولك، هل هذه أوروبا التي كنا نحلم بها؟ هل هذا هو المجتمع الذي كنا نظنه رمزًا للرقي؟

نعم، أوروبا متقدمة علميًا، لكنها، برأيي، تعاني من أزمة أخلاقية عميقة. إفلاس أخلاقي سببه إنتشار مفاهيم الحريات إلى حد الإنفلات، فما كان يصدمنا بالأمس لم يعد كذلك اليوم، أصبح الشذوذ مقبولاً في كل مكان، العنصرية ما زالت تسكن التفاصيل، رغم كل الحديث عن المساواة والإنسانية. حقوق الإنسان تمارس بإنتقائية، حتى بين الأوروبين أنفسهم. شعوب أصبحت كآلات، تعمل ليلاً نهارًا لا وقت ولا مكان

للمشاعر.. شعوب تكد طوال الأسبوع وتسكر لتهرب من حقيقتها في نهايته.
وراء واجهة الرفاهية، هناك فراغ روحي، جفاف إنساني وإنهيار في منظومة الأسرة.
مفاهيم الأبوة والأمومة تتآكل، أسر تتفكك قبل أن تتكون...
مساكين هم بعض العرب الموجودون هنا، كذبوا على أنفسهم واعتقدوا أنهم سيعيشون في الجنة..
باعوا جزءًا من هويتهم وقيمهم وتخلوا عن أخلاقهم في سبيل المادة، نساؤهم كاسيات عاريات، الخيانة في كل مكان من الجنسين، شبابهم ضائع في المخدرات، أناس لا يعرفون الحلال من الحرام إلا عندما يشترون اللحم، فيطلبونها حلالا، ويشربون معها الخمر.

بيوت غابت عنها الأخلاق والتربية فولد الأبناء وقد انتزعت الرحمة من قلوبهم، يتخلون عن آبائهم، يقسون عليهم ويودعونهم في دور العجزة بلا تردّد.
الابن لا يوقر كبيرًا ولا يرحم صغيرًا، يتطاول على والديه مستندًا إلى حماية القانون، المرأة تستقوي على زوجها باذات القانون، الابنة تصاحب بحماية القانون، حتى طفلك قد يُنتزع منك كل ذلك بالقانون.

مجتمع لا يأبه لشيء سوى للمادة، وإن أردت أن تعيش هنا فعليك أن تفكر فقط بالمادة، فتحول مشاعرك إلى أرقام وعمرك إلى ساعات وظيفية.

مجتمع غاب فيه التسامح، يحاسبك على زلة لسان خرجت في حالة غضب، ويجردك من إنسانيتك لأجل هفوة عابرة.

أوروبا يا عزيزتي، ليست سوى شركة نعمل لديها، ونأخذ مقابل ساعات عملنا.

أي حياة إنسانية هذه؟ أين الأمان الإنساني الذي يلزم البشر بالتكافل فيما بينهم؟

لقد ضاعت هويتنا، أو بالأحرى نحن من تخلينا عنها في سبيل الترف المعيشي.

بئس المجتمع الذي يُقدس المادة.

بئس المجتمع الذي يعامل الإنسان كرقم.

بئس المجتمع الذي لا يقدر الآباء ولا يحرم الضعفاء.

بئس المجتمع الذي ينام ضيوفه في الشوارع.

بئس المجتمع الذي يخلو من تسامح البشر فيما بينهم.

بئس ذلك المجتمع الذي يطغى فيه القانون على حساب مشاعر الأهل ومشاعر الزوج.

بئس المجتمع الذي فيه نساؤه تتذرع بالمساواة لتتطاول على رجاله.

بئس المجتمع الذي يطغى فيه العُرِيّ والشذوذ باسم الحريات. بئس المجتمع الذي ينظر للمحجبة أو للشخص المتدين على أنه متخلف منغلق، وللشاذ جنسيًا على أنه متحضر منفتح.
ردت "كارمن" عليه: نعم أوروبا مفلسة أخلاقيًا، ولكنها متقدمة علميًا.
أجابها:
لقد أعادنا هذا المجتمع إلى أيام الجاهلية، لا فرق بيننا وبينهم سوى ناطحات سحاب وتقدم العمران.
ففي الجاهلية قُدست المادة على حساب الأخلاق والقيم، واليوم تتكرّر المأساة ذاتها، لكن بأقنعة أنيقة وبشعارات براقة تخفي قبح الواقع.
نمارس في عصر واحد كلَّ ما مارسته الجاهلية على مدى عصور، من تفككٍ اجتماعي، وانهيار أخلاقي، وإفلاس قِيَميّ.
سرحت "كارمن" قليلًا وقالت: ما علاقة كل هذا بتجارتكَ للمخدرات؟
رد عليها: لا أحد بطبعه يريد الانحراف، ولكنها الحاجة، الحاجة لنعيش، الحاجة ليعيش أهلنا ولا شيء سوى الحاجة.
أنهى كلامه، وكأنه المظلوم الوحيد على هذه الأرض، وكأن الحاجة أعطته الحق لهذه الجريمة التي يقترفها، بل ذهب أكثر من ذلك بكثير فتارة يبرر أفعاله بأن الغرب هم من دمروا بلادنا

وأوصلونا إلى ما نحن عليه، وطورًا يعتبر أنه ما يقوم به هو جهاد والهدف منه تدمير من يعتبرهم كفارًا.

أسكتته "كارمن" بعد أن سمعت كلامه غير المتزن، وطلبت منه أن يتوقف عن تجارته، وأيضًا عن تعاطيه إذ إن آثار المادة البيضاء التي كانت على الحوض في الحمام تدل على أنه يتعاطاها وليس يتاجر بها فقط.

وعدها حينها أنه سوف يتوقف عن تعاطيها وعن تجارتها، ولكن بعدما ينتهي من التصرف في البضاعة التي لديه.

هزت "كارمن" برأسها وانصرفت، وراحت تسأله كل يوم عمّا إذا كان قد تصرف في بضاعته أو لا، ويجيبها بأنه لم يفعل بعد، واستمرت الحالة هذه ما يقارب شهرين، فيأتي كل يوم حاملًا النقود، و"كارمن" تسأله إذا ما كان قد تصرف بالبضاعة الموجودة لديه، ولكنه يجيبها بالنفي.

وبعد مرور شهرين آخرين، وأثناء سؤالها له كالمعتاد عمّا إذا كان قد تصرف بالبضاعة أو لا، صرخ في وجهها متوجهًا إليها بكلامٍ قاسٍ جارح، فقال لها: إذا توقفت تجارتي فماذا سأعمل؟ ماذا ستلبسين؟

من سيرسل لأهلكِ ولأهلي النقود؟

هل سألت نفسك هذه الأسئلة أم أنها مجرد فلسفة؟

تلك الفلسفة التي تتحدث عن الطهارة والنظافة والأخلاق... لكنها لا تأبه لظروف الناس، لا تقاس على الجميع.

يا عزيزتي، الكتابة عن الجوع من شبعان... ليست كالحديث عنه من الجائع.

الكتابة عن المعاناة سهلة، لكن الإحساس بها شيء آخر تمامًا.

أن تحدثني عن الجوع شيء، لكن أن تجوع أنت أو أطفالك شيء آخر لا يمكن وصفه.

الغربة قد تكون مشوقة في الكتب، لكن عيشها كابوس لا يطاق. سرد القصص عن الظلم قد لا تبكي البعض لكن من يعيشه سيبكي حتمًا.

حتى الجمال، الحديث عنه شيء ورؤيته شيء مختلف.

والحب أيضًا الحديث عنه سهل لكن أن نعيشه بصدق ذلك إمتحان صعبٌ.

أما الصبر، فهو إن بدا في ظاهره جميلاً في الكلام، لكنه في حقيقته مرّ لم يقوى عليه إلا الأنبياء.

تأليف الكتب عن المثالية هو أمرٌ في غاية البساطة... لكن تحقيقها يكاد يكون مستحيلاً.

دعكِ من المثاليات، وفكري في نفسكِ، بأولادكِ، وبأهلكِ...

كلهم بحاجة إلى شيء واحد: النقود.

لا تصدقي المتفلسفين، فهم يقولون ما لايفعلون...

يتحدثون عن الزهد في المال، وهم أول من يركض خلفه.
المال يا عزيزتي، الذي يشتري كل شيء، الحجر، الشجر، والبشر وحتى المشاعر.
فكم من إنسان باع نفسه من أجل المال، وتخلى عن أخلاقه دون أن يرف له جفن.
كم امرأة باعت نفسها من أجل النقود، فتخلّت عن حبها وتزوجت رجل يكبرها بعشرات السنين!
كم من مواطن باع وطنه من أجل المال، فرحل عنه وبحث عن وطنٍ بديل!
كم من أم تزوجت فقط من لتطعم أطفالها!
وكم من شابٍ تزوج امرأة أجنبية في عمر جدته، فقط لينال الجنسية!
وكم من شخص كتم الحق من أجل المال، فنصر الظالم!
كم من كاتب باع ضميره، فزيّن للحاكم كلماته السامة!
كم من باحث باع عقله، فصنع بأسلحته ما فتك بالبشرية!
كم من طبيبٍ باع إنسانيته، فأجرى عمليات تحرمها الأخلاق!
كم من محامٍ باع موكله، كم من قاض باع قسمه!
كم من رجل دين باع خالقه من أجل المال، فحلّل ما حرّم اللّه!
حتى أنت يا "كارمن" كم مرةٍ بعتِ نفسك من أجل النقود، فتزوجت "أديب" من أجل النقود ثم تزوجتني أيضًا من أجل

النقود.

وأكمل.. لا تتفاجئي، فإني أعرف ما تخفين.

كل شيء قد نستطيع إخفاءه إلا مشاعرنا سواء كانت حبًا أو حزنا، فالمشاعر ليست شيئًا منفصلًا عن الجسد فهي تحركه، وتأمره بأن يأتي بالفعل، فيستجيب الجسد رغم تمنعه في بعض الحال حفاظًا على كبريائه.

نعم يا "كارمن"، أعلم وأشعر فمراقبة حركات جسدكِ قد تدل على ما يخفيه قلبكِ.

بكت لما سمعته من كلامٍ جارحٍ إلا أنه حقيقي، فهكذا تكون الحقيقة فدائمًا تكون جارحة.

وما إن رآها تبكي حتى خرج من الشقة، وذهب إلى إحدى الحانات وجلس هناك حتى منتصف الليل لا يفعل شيئًا سوى شرب الخمور، وتفكيره فيها..

فـ"مؤمن" وإن كان يعلم ما قاله لـها إلا أنه كان يتمنى أن يكون مخطئًا بما قاله، بما يتعلق بشعورها اتجاهه، فكان يتمنى أن تكون تحبه كما يحبها هو.

وفي منتصف الليل، عاد إلى الشقة مخمورًا، فكانت "كارمن" لا تزال مستيقظة، تفكر بما قاله لها..

وحال سماعها أن الباب يفتح، راحت تمثل أنها نائمة، فنام بجانبها من دون أن يبدل ملابسه، فكان تأثير الكحول عليه يبدو واضحًا، وما هي إلا ثوانٍ حتى أصبح في عالمٍ آخر.

في اليوم التالي، استيقظت باكرًا، فحضرت أمتعة طفليها، وقامت بتوصيلهم إلى المدرسة.
وبعد أن قامت بتوصيلهم إلى المدرسة، ذهبت إلى أحد المقاهي لاحتساء القهوة والتفكير العميق بما قاله لها من كلامٍ جارح.
سرحت بعينها فكانت أفكارها مشتتة بين كرامتها التي تبعثرت من جراء الكلام الجارح الذي وجهها إليه "مؤمن" وبين حاجتها لنقوده بسبب التزاماتها الضرورية تجاه أهلها وتجاه طفليها.
كانت تراودها فكرة بعد فكرة، تارة تفكر بالانفصال عنه والاعتماد على نفسها وأنها تبدأ في العمل من جديد لتحصيل النقود، وطورًا بالصبر على هذه الأوضاع إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا.
صراع دخلت فيه مع نفسها، واستمر لساعات يشغل رأسها، ولم تتمكن من حسمه، فعادت إلى شقتها متعبة، مرهقة، ماسكة رأسها بيدها.

فهي تعلم أنها تمر بأصعب صراع قد يخوضه المرء ذلك الصراع الذي يخوضه الإنسان مع نفسه، الذي يكون في حقيقته صراع بين الحاجة والكرامة، أي الواقع والمثالية.

وفي المساء، حضر "مؤمن" وراح يداعبها التي بدروها راحت تسأله عن المخدرات وأثرها على جسم الإنسان، فأخبرها أنه يتعاطى منذ زمنٍ بعيد، وأنه في حالة استقرار نفسي، هدوء عقلي وعاطفي ونسيان لظروفه طالما هو يتعاطاها. عرض عليها أن تجرب جرعة مخدرة، فرفضت ذلك، كان للحديث عن المخدرات أثرٌ حزينٌ في قلبها، فعادت بذاكرتها إلى بيروت، فهي لم تنسَ أن والديها كانا يقيمان حفلاتٍ صاخبة يقدمان فيها كافة أصناف المخدرات.

وما إن تذكرت بيروت، حتى راح قلبها يخفق بسرعة، فتذكرت "مكسيم"، وحبهما في بيروت، وتنهدت...

آه يا بيروت، آه يا جميلة، ماذا فعلوا بكِ؟..

استعمروكِ، ثم اغتصبوكِ، وعندما أشبعوا رغباتهم... باعوكِ بأرخص الأثمان.

من ذا الأحمق الذي فرط فيكِ؟.

ومن ذا المجنون الذي تخلى عنكِ؟

آه على بيروت،
وشوارع بيروت،
وهوائها، وشجرها، وأحجارها، ونسائها، ورجالها، وزوّارها...
هي قطعةٌ من الجنّة أنزلت على هذه الأرض،
لذلك كان كل شيءٍ فيها مختلفًا،
حتى اسمها... فلفظه ليس ككل الألفاظ.
بيروت... قد يرى الأعمى جمالها،
وقد يسمع الأصم صوت البحر فيها،
وقد ينطق الأبكم برونقها.

في بيروت... كل شيء مختلف،
حتى الحب فيها مختلف،
وكم هو محظوظ من يعشق في بيروت،
ومن بيروت وبالذات بالمشاعر العربية،
فيكون حبه مضاعفًا،
ويختلف اختلافًا كبيرًا عن كل قصص الحب في هذا العالم.
فكلمة "أحبكِ" لا تجد لها معنى حقيقيًا في اللغة الإنجليزية،
وكلمة "أعشقكِ" ليست هي ذاتها في الإيطالية،
وكلمة "اشتقت إليكِ" لا يمكن تعويضها كل مفردات اللغة الألمانية، وتعبير "انتبهي على نفسكِ" فلم توردها القواميس

الروسية.

فكل هذه العبارات من -"أحبكِ"، "أعشقكِ"، "اشتقت إليكِ"، "انتبهي على نفسكِ"- ليست مجرد كلمات تقال،

إنها أرواح تبث في القلب فتُحييه وتوقظه من سباته.

فالكلام حين لا يترافق مع ابتسامة، ولا يخرج من عمق الإحساس، حين لا يرتجف معه الجسد ولا يتصبب العرق من شدة صدقه... يبقى مجرد فلسفة فارغة، تنسى عند أول مفترق.

وبعد أن تذكرت كل تلك المأساة، دخل الحزن قلبها وكأنها تيتمت، فطلبت منه أن يعطيها جرعة من المخدرات التي يتعاطاها.

فأحضر لها جرعة، وقدمها له.

وما إن تعاطت هذه الجرعة، حتى تبدلت حالتها، وشعرت بسعادة لا مثيل لها، ولكنها لم تكن تعلم ماذا بعد؟

ماذا بعد هذا؟

في البداية، كانت تأخذ جرعة منه، كل فترة لتقوم بنسيان ما هي فيه، وبالذات أن ظروف الحياة التي تعيشها أثرت في نفسيتها ووجدت نفسها وحيدة، فحنت إلى "مكسيم" التي لم تكن تعرف له طريقا.

وبعد تعوُّد جسمها على المخدرات بعد ما يقارب من شهر، تحولت من هاوية للمخدرات إلى مدمنة.

كان "مؤمن" في البداية هو من يقوم بتقديم المخدرات إليها كضيافة، ولكن ما إن رأى أن حالتها بدأت تسوء، وأنها أصبحت تتعاطى المخدرات بشكل يومي حتى طلب منها أن تقلع عنه.
هنا أخبرته بأنها ليست مدمنة، وأنها تريدها فقط لتنسى ظروفها المعيشية.
رفض تقديم المخدرات لها بحجة أنه لا يمتلكها، فطلبت منه أن يذهب ويحضرها لها، لكنه رفض، وطلب منها أن تنام.
وما إن خلدت إلى النوم هي و"مؤمن"، حتى استيقظت مجددًا.
رأت أنه في سبات عميق، فخرجت من الشقة بكل حذر، وراحت تبحث عن المخدرات في الشوارع كالمجنونة.
كان جسدها يرتعش، ولسانها ثقيل لا يقوى على الحديث، فنزلت إلى محطة القطار لتبحث عن أي شخص يبيع المخدرات لكن محطة القطارت كانت مقفلة.
فراحت تسأل المارة عن أي شخص يبيع المخدرات، وبعد سؤال عدة أشخاص، أخبرها أحدهم أنه يمتلك بعض الجرعات لكنها في منزله.
طلب منها هذا التاجر أن تذهب معه إلى منزله، وهناك سيقوم بتقديمها له.

وافقت دون تردد وقامت بمرافقته إلى منزله، فقدم لها جرعة مخدرات، ثم حاول أن يتحرش بها وبسبب أنها تحت تأثير المخدرات لم تصمد كثيرًا، فقام باغتصابها.

وبعد اغتصابه لها، عادت إلى شقتها، وكأن شيئًا لم يحدث، فنامت بجانب "مؤمن".

استيقظ "مؤمن" صباحًا ولم يلحظ شيئًا، فغادر الشقة بهدوء، وبعد أن قامت صباحاً أصبحت تكرر هذا الفعل، فالمخدرات ثغرق دمها.

وفي إحدى الليالي وهي تقوم بإغلاق باب شقتها، استيقظ "مؤمن" ولم يجدها بجانبه، وانتظرها لحين عودتها، فسألها عن سبب خروجها في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فأجابته بأنها خرجت للاستمتاع بالهواء الطلق، لم يقتنع بكلامها، وقرر أن يراقبها.

وفي اليوم التالي أنتظر خروجها من الشقة، واتبعها وما إن رآها برفقة ذلك الرجل حتى اقترب منها، فطلبت منه أن يدعها وشأنها، فسألها الرجل عن "مؤمن"، فأخبره بأنه زوجها. غادر هذا الرجل، وتركها وحدها مع "مؤمن"، فسألها عما تبحث في هذا الليل، فقالت.. إنها تبحث عن المخدرات، وإنها تأتي كل يوم لتناول جرعة مخدرة.

أصابه الذهول مما سمعه، فعرف أنها أصبحت مدمنة. فطلب منها أن ترافقه إلى الشقة، وهناك سيقوم بإعطائها جرعة من المخدرات.

رافقته إلى الشقة، وبعد أن قام "مؤمن" بتقديم المخدرات لها، سألته إذا ما سيقوم باغتصابها.

علم "مؤمن" حينها أنها كانت تتعاطى المخدرات ثم تمارس الجنس مع من يقوم بتقديم المخدرات لها.

في اليوم التالي، طلب منها "مؤمن" أن تذهب برفقته إلى الطبيب ليقوم بالكشف عليها، ولكنها رفضت.

وبعد عدة محاولات منه لاصطحابها إلى الطبيب، ورفضها لطلبه، أصر "مؤمن" على عدم تقديم المخدرات لها.

فراح يمنعها من تعاطي المخدرات سواءً عبر امتناعه عن تقديم المخدرات لها أو من خلال منعها من الخروج للبحث عنها في الخارج حتى لو كان عن طريق ربطها بالسرير..

وبعد عدة أيام، أصبحت حالتها الصحية تسوء، فقرر أن ينقلها إلى المستشفى.

نقلها إلى المستشفى، ثم غادر لأنه خاف على نفسه من أن تقوم بالإبلاغ عنه بوصفه الشخص الذي يقدم لها المخدرات، ووصفه كتاجر يتاجر في هذه المواد.

تخلى عنها، وتم نقلها إلى مستشفى متخصصة لعلاج الإدمان.
علم "أديب" بما حصل معها بعد أن قام "مؤمن" بإبلاغه.
كان "أديب" ما يزال يحقد عليها فأخذ أولاده منها، وتقدم ضدها بدعوى أمام المحاكم الألمانية ليحظى بحقه في الرعاية للأطفال بشكل كامل بعد أن كان يحظى بهذه الرعاية بالمناصفة بينه وبينها..
وعندما تفحصت المحاكم الألمانية أوراق القضية، انتهت إلى أن "كارمن" لا تصلح لرعاية طفليها بسبب إدمانها المخدرات، فحكمت المحكمة لـ "أديب" بالرعاية الكاملة.
نقل "أديب" أولاده للعيش معه، وبقيت هي في المستشفى للعلاج من الإدمان.
كان "موريس" الطبيب المسؤول عن علاجها من الإدمان، وكان هذا الطبيب ذا أصولٍ مصرية هاجر من مصر منذ أن كان شابًا لدراسة الطب، فتخرج من إحدى جامعات ألمانيا، وبقي للعيش فيها.
كان "موريس" طبيبًا مميزًا، أبهرته أوروبا بجمالها وبعاداتها وثقافتها، وهو لم يتوان يتحدث عنها بكل عشق عندما يذكرها، فأوروبا بالنسبة لـ "موريس" بلاد مثالية فيها الحريات، العدل والمساواة وهي البلد التي لا يُظلم بها أحد، فيتحدث عن مجانية التعليم ومجانية الاستشفاء، وسيادة مبادىء الديمقراطية فيها.

وفي إحدى الدردشات التي جرت بينه وبينها، وعند تحدثه عن العدل، والساواة والقانون في أوروبا قاطعته "كارمن" قائله:

إن هذه العدالة ليست إلا عدالة خارجية المظهر، وإنما في المضمون غير موجودة.

إنها بلاد تعاني من عنصرية مستترة ضد الأجانب، فيخضعون لمعاملة متميزة عن أبناء البلاد، ويبقون "غرباء"...حتى لو حصلوا على جنسية هذه البلدان.

كم من وظيفة حُرم منها شخص فقط لأن أصوله غير أوروبية!

بل حتى المرأة هناك لا تزال تُميّز في الأجور، فراتبها غالبًا لا يساوي راتب الرجل في نفس المنصب.

يقول "موريس": على الأقل هي أنظمة علمانية تفصل بين الدين والدولة وهو ما نفتقده في دولنا العربية.

فترد "كارمن":

ومن قال بأن الدين كان يومًا عائقًا لتقدم البشرية؟ وتجيب هي نفسها على سؤالها بالقول:

إن جميع الأديان كانت دائمًا تحث على تقدم البشرية وتطورها، لكن إستغلالها لتحقيق مكاسب سياسية على يد رجال لا يفقهون شيئًا من جوهرها هو ما يعيق تقدم أي مجتمع وتطوره.

أما الوطنية والعروبة، فليستا كلامًا فارغًا أو شعارات جوفاء كما يزعم البعض، بل هما أهم أسباب وأسس تقدم المجتمعات

وتطورها وتعاونها مع بعضهاالبعض.. فالأمم لم تكن لتتقدم لولا ولاء شعوبها لها، وتخليهم عن أنانيتهم ومصالحهم الشخصية في سبيل المصلحة العامة ومصلحة الوطن.

قد تكون طبيبا وأعلى مرتبة علمية مني، لكن سأخبرك أنك تنظر إلى الأمور من الناحية النظرية البحتة ولا تعيشها في الواقع.

فالكلام عن المثالية رائع نظريًا لكن تنفيذه على أرض الواقع ليس سهلًا...انزلوا إلى الشوارع...وسترون العجب.

حتى الديمقراطية،

ليست بالضرورة النظام الأمثل للحكم ولتقدم المجتمعات، فهي تقوم على حكم الأغلبية وعليك أن تحترم رأيهم، حتى لو خالف قناعاتك، وأخلاقكِ وإنسانيتكِ...وكل ذلك باسم الديمقراطية.

باسم الحريات والديمقراطية، شُرعت المخدرات، وأعترف بالشذوذ، ووجدت تبريرات لانتهاك كرامات الناس وأحيانًا لقتلهم..

قد لا نختلف على أن أوروبا متقدمة علميًا، وقد تسبقنا بمئات السنين، لكنها تعاني من إفلاس أخلاقي، سيُلقي بها في الهاوية عاجلاً أم آجلاً.

أنتهي الحوار بينهم في هذا اليوم..

ومن بعدها بدأت "كارمن" العلاج في المستشفى، فلقد خضعت للعلاج لفترة طويلة..

كان الطبيب يعطيها منوما لكيلا تشعر بالألم، فوجهها أصبح شاحبا ، وعينيها غائرتين تخفيان حكايات من الألم والانكسار، حتى أناملها المرتجفة... كانت تقبض على غطاء السرير كأنها تحاول التشبث بالحياة، تارة، وبذاتها القديمة، تارة أخرى.

فهي تحاول اليوم أن تخلع عنها كل تلك السموم، أن تنظف روحها قبل جسدها، رغم الألم، رغم التشنجات، رغم الليالِي الطويلة التي يزورها فيها الاشتياق القاتل، لكنها ما زالت هنا.

في كل صباح، كانت تكتب بخطٍ مهتز على دفتر صغير:

"لن أعود، حتى أعود لنفسي".

وبعد مرور عدة أشهر تم شفاؤها بشكلٍ كامل وخرجت من المستشفى.

ربطت بينها وبين "موريس" علاقة صداقة متينة، فهو لم يبخل على الاعتناء بها، وتقديم لها كل مساعدة كانت تحتاجها.

ومن ضمن هذه المساعدات، كانت مساعدة لها في الحصول على غرفة في أحد الفنادق المخصصة لمن لا يملكون مأوى، فهي كانت قد فقدت شقتها حيث انتزعتها الدولة منها بسبب وجودها في المستشفى.

فأصبحت تزور "موريس" كل فترة لكي يقوم بتقييم وضعها الصحي، ونشأ عن هذا التردد إلى "موريس" علاقة إعجاب من قبل "موريس" بـها والتي كانت وبرغم مرور كل تلك الظروف ورغم مرور السنين لا زالت تفكر في "مكسيم" متسائلةً إذا ما كان على قيد الحياة أم أن الحياة قد فتكت به.
كان "مكسيم" لا يزال منشغلًا في الحرب، ويقطع انشغاله بين الحين والآخر التساؤل حول مكان وجودها وإذا ما زالت تفكر به أو أن الحياة أشغلتها عنه.
وتمر الأيام، ولا يتغير شيء من جهة "مكسيم" سوى أن يزيد حبه لـها ويرتفع عدد ضحاياه، وكأنه كان ينتقم من معسكر اليسار لأنهم حرموه من حبيبته إذ كان يعتبر أنهم السبب وراء إشعال الحرب ووراء خسارته لـ "كارمن".
كان حاقدًا على كل شيء، على البشر والحجر وكأن حبه حوله لمجرم لم يعد يرى سوى الدماء.

الفصل الثالث

قدر

مرت السنوات بسرعة لم تتخيلها..
فقررت "كارمن" أن تتصل بـ "أديب" لترى أولادها، لكنه كان يرفض، إلى أن قامت وبمساعدة "موريس" برفع دعوى على عليه تمنحها رؤية ولديها، خصوصًا أنها لم تعد مدمنة بحسب تقارير الأطباء.
حكمت لها المحكمة برؤية ولديها، وما إن رأتهما لأول مرة حتى صُدمت فهم قد كبرا ولم يعودا كما تركتهما.
حاولت أن تشرح لهما سبب بعدها عنهما وأن والدهم هو من كان وراء هذه القطيعة.
لم يتفهموها في البداية لكن مع الوقت أصبحا يتقربان منها خصوصًا أنها أصبحت تصطحبهما إلى المطاعم والملاهي.
كان "مكسيم" في هذه الأثناء ما يزال يقاتل في لبنان، و"كارمن" لم تفارق ذهنه فيقول لها وهي غائبة بجسدها عنه:
أنِ كالبندقية لا يمكن للمحارب أن يمشي بدونك.
أنتِ قهوته التي تحجب عنه النوم الذي قد يؤدي إلى مقتله إذا ما فعل.
استمر هذا الحال لفترة قصيرة جدًا وما إن بدأت الحرب تتقلص لتعلن نهايتها حتى راح "مكسيم" يركض بين الأزقة ليبحث عن أهل "حبيبته" لعله يحصل على معلومات عنها.

فكان لبنان في كابوس، دم في كل مكان، جثث هنا وهناك، بيوت تحت الأنقاض، طرقات لا تشبه الطرقات، حتى البشر بدوا غير البشر، منهكين، متعبين، وكأنهم خارجون من تحت التراب.
كان شيئًا شبه مستحيل، كان البحث عن أهلها كمن يبحث عن إبرة في كومة قش.
كان كأي عاشق يتمنى أن يعود إلى مكان عشقه، فراح يركض إلى بيروت الغربية في تلك البناية التي كان يقيم فيه هو وعائلته و"كارمن" وعائلتها..
وهو المكان الذي ولد فيه حب "مكسيم" لـ "كارمن"، ولكن قد تغير كل شيء فكل شيء قد تدمر إلا أجزاء من السلم مكان العاشقين الذي كانت تنظره حبيبته عليه، فجلس عليه واضعًا يده على رأسه نادمًا حظه لما قد حدث.
راح يبكي نادمًا على كل حدث، طالبًا عودة الزمان إلى الوراء، إلى زمن عشقه لـ "كارمن".
مرت سنين، وتوطدت علاقة "كارمن" بولديها خصوصًا "إلياس" الذي كان يميل إلى والدته أكثر من والده.
كان "إلياس" حنونًا بعض الشيء، يحب والدته كثيرًا رغم أن والده كان يزرع في رأسه أنها قد قامت بالتخلي عنهما من أجل نزواتها.

ولكنه كان مجتهدًا محبًا للحياة ومحبوبًا بالنسبة للجميع، وكان لديه أصدقاء يكبرونه سنًا.

فقد كان تفكيره أكبر من سنه، وكان أصدقاؤه يترددون لرؤيته بين الفترة والأخرى في منزل والده.

كان من بين أصدقائه فتاةٌ ألمانية قاصر تدعى "ماريا"، وقد كانت فائقة الجمال.

كانت "ماريا" معجبة بـه رغم أنه يصغرها في السن، وقد كانت تتردد إلى منزل "أديب" بين الحين والآخر.

وكان "أديب" مهوسًا بالبنات الصغار، ينظر إليهن نظرات غير أخلاقية.

وذات مرة أتت "ماريا" لرؤية "إلياس" الذي كان خارج المنزل برفقة أخته، وعندما رآها والده طلب منها الدخول لحين حضور "إلياس" و"جوليا".

فدخلت وجلست معه الذي راح يتحرش بها، ويثيرها إلى أن مارس الجنس معها.

أصبح "أديب" يمارس الجنس مع هذه الفتاة إلى أن رآهم "إلياس" مرة من المرات.

فصُدم ذلك الطفل من أفعال والده، وحقد عليه وعلى "ماريا".

سببت هذه الأفعال حالة نفسية لـه وبدأت المرأة تمثل له الخيانة، الخيانة فقط.

سببت هذه الاضطرابات النفسية لـه، فلقد تحول في ميوله الجنسية، فتحول إلى شاب شاذ، شاذ جنسيًا.

فلقد بدأ يمارس الفحشاء مع الرجال، وأدمن على هذه الأفعال إلى أن كبر من دون معرفة "كارمن" بحقيقته الجنسية.

عرفت "جوليا" بأمر أخيها، وكان لهذه المعرفة أثر في نفس "جوليا" التي أصبحت هي الأخرى شاذة تمارس الفحشاء مع صديقاتها وكأن هذا يشبه المرض المعدي الذي جعلها مريضة مثل أخيها دون وعي منها أو إدراك لما تفعل من كبائر..

كان "أديب" يعلم بحاله ولديه إلا أنه لم يأبه لذلك، كما أنه رفض إعلام "كارمن" بذلك خوفًا من أن تتهمه بأنه قصر في تربيتهم.

ومع مرور الزمن أصبحت العلاقة بين "كارمن" و"موريس" يعتريها الفتور خصوصًا أن "كارمن" كانت تعيش معه جسدًا بلا روح بعد أن كانت قد قبلت به خوفًا من الوحدة، فقلبها رغم السنين كان لا يزال يحن إلى حبيبها الأول، المنشغل في حربه في لبنان.

بدأ "موريس" يمل من تصرفاتها معه التي راحت تتعلق شيئًا فشيئًا بشرب الخمر، وكأنها كانت تهرب من حياتها الروتينية التي انحصرت بانتظار "موريس" ليعود من عمله من المستشفى لكي تجلس معه.

أصابها الملل من هذه الحياة الباردة، وأصبحت تشعر بالوحدة، فقررت أن تعمل.

أعلمت "موريس" برغبتها في العمل إلا أنه رفض ذلك، وأمام إصرارها على العمل ورفضه لذلك نشأ بينهما خلاف كبير تبعه "موريس" بالتجريح فيها واتهمها بالأنانية والركض وراء شهواتها، وتخليها عن ولديها الذيْن أصبحا شاذين.

لم تصدق "كارمن" ما سمعته، وراحت تتهم "موريس" بالكذب إلى أن قال لها "موريس" بأنه سيقوم بإثبات ما يدعيه لها.

بعد يومان، أحضر "موريس" أحد أصدقائه واستجوبه أمامها وأخبرها أن ابنها وابنتها شاذان ويمارسان الفحشاء فضلًا عن تعاطيهما المخدرات.

أصابتها حالة من الذهول، وقررت استدعاء ابنها وابنتها لمعرفة إذا ما قيل لها حقيقة أم لا...

ولكن عند محاولة التواصل معهم لم يحضر غير "إلياس"، فواجهته بما عرفت، تفاجئ "إلياس" بأن والدته قد عرفت بما يفعلاه، ولكنه أخبرها بقصة والده مع "ماريا" فهو بنسبة له السبب فيما وصل إليه هو وأخته..

وقعت "كارمن" على الأرض وهي تصرخ وتبكي بشدة غير مصدقة ما قيل فأصبحت تبكي على حالها وحال ابنها وابنتها..

وصل "موريس" في تلك اللحظة فأخبرته بأنها ستنتقل للعيش وحدها، وأنها ستقوم بقطع علاقتها معه.

كان "موريس" مسرورًا بقرارها وكأنه كان ينتظر منها هذا القرار، لكنها قبل أن تغادر قالت له بحرقة:

هذه هي أوروبا التي ما زلت تتغنى بها؟

رد عليها: إن أوروبا مفتوحة لكل شيء، ففيها من هذا وفيها من ذاك، ومن يختار حقيقته في النهاية هو الإنسان نفسه.

لم تقتنع بكلامه واعتبرت أن الظروف هي من تحدد ما يمكن أن يقوم به الشخص من أفعال وتصرفات وحتى انحرافات.

قامت باستئجار شقة لها وحدها، وبدأت حياتها من جديد. بحثت عن عمل فوجدت، وأشغلت حياتها بالعمل في أحد المطاعم كنادلة، وراحت تحاول أن تغير من طباع "إلياس" لتقوم بإخراجه مما هو فيه..

أصبح "إلياس" يتردد على شقة والدته، وراحت هي تهتم به، وتعرض عليه الزواج من الفتيات، فتقدم له في كل يومٍ فتاة أخرى من بنات العائلات التي تعرفهم.

فشلت "كارمن" في البداية معه وأخبرته أنها سوف تقطع علاقتها به إذا لم يمتثل لرغبتها.

وبعد تهديدها له بذلك في أكثر من مرة، أصبح "إلياس" يقطع علاقته بوالدته شيئًا فشيئًا مستمرًا بما يفعله.

حتى انقطعت أخباره عن والدته، التي راحت تسأل "أديب" عنه والذي أخبرها أنه ترك الشقة، وانتقل إلى العيش مع أحد رفاقه.
سألت "أديب" عن مكان ولدها، فأخبرها أنه لا يعرف عنه شيئًا.
وفي أحد الأيام، وأثناء عودتها من عملها، رأت "إلياس" يجلس في المقاعد الخلفية في مركبة النقل العمومية؛ فصرخت وبدأت تنادي عليه، ولكن عندما رآها ولكنها لم يأبه لصراخها.
أخذت حالتها النفسية تسوء يومًا بعد يوم، فهي تائهة بين محاولة مساعدة ولدها، ومحاولة مساعدة نفسها، حالة من الضياع عاشت بها لشهور، فهي التائهة الباحثة في الذكريات عن حبٍ مضى وعن محاولات القبول بالواقع، وتحسين ظروفها وإنقاذ ابنها مما هو فيه.
تولد عن هذا الضياع، حالة وحدة كبيرة شعرت بها وحاولت أن تخرج من هذا الحال عن الخروج مع زملائها في العمل للترفيه على نفسها.
راحت تخرج معهم يومًا بعد يوم، وتشرب معهم الكحول حتى أصبحت حياتها عبارة عن عمل في النهار وسهر في الليل.
وفي إحدى الليالي، وأثناء سهرها مع أصدقائها تعرفت على "يامن" ذلك الشاب اللبناني الذي تنحدر أصوله من الجنوب اللبناني.
كان "يامن" مدمنًا للخمر، وكان أيضاً من محبي لعب القمار.

أصبحت "كارمن" تواعده في الخمّارة التي يسهرون فيها، وراح يشجعها على لعب القمار، والتي لم تمانعه خصوصًا أنها كانت تراه يكسب من القمار كثيرًا، فأعجبتها الفكرة حتى أصبحت متعلقة بالقمار أكثر من تعلقها بـه معتقدة أن القمار هو الحل الذي قد يجني لها الكثير من النقود.

فأصبحت تلعب القمار بشكل شبه يومي، فهي لم تتردد في أن تنفق نقودها التي تحصل عليها من عملها في آلات لعب الميسر. كانت تخسر تقريبًا كل يوم، وراحت تستلف منه النقود لتراهن على الحظ والنصيب الذي لم يسعفها لتحسين معيشتها، وإنما أغرقها بشكلٍ كامل.

وأثناء مطالبة "يامن" بنقوده، عجزت عن التسديد، طلب منها أن يقوم بالنوم معها بقيمة هذه النقود، فكان ينام معها بمبلغ يقدر بخمسمائة مارك لكل ليلة.

أحب "يامن" جسدها فلم يتوان عن إعطائها النقود في كل مرة تطلبها منه.

كانت "كارمن" تراهن على الحظ بالكسب، وهو يراهن على خسارتها لتعجز عن التسديد وينام معها.

وفي إحدى الليالي، وأثناء جلوسها وراء آلة المراهنات شاهدها ابنها الذي كان برفقة عشيقه؛ فاقترب منها وطلب منها أن تبتعد عن المراهنات، وأنها ستدمر حياتها إذا استمرت في اللعب.

طلبت منه أن يدعها وشأنها، خصوصًا أنها كانت فاقدة الوعي بفعل تأثير الكحول.
أمسكها من يدها واصطحبها، وغادرا المكان وذهب بها إلى منزله.
نامت تحت تأثير الخمر، ونام ولدها بجانبها.

في اليوم التالي، تحدث إليها "إلياس" متسائلًا عن حالتها وأسباب انحرافها بهذا الشكل فأخبرته أنه كان السبب الرئيس وراء هذه الأفعال، فوحدتها وعدم اعتناء أولادها بها كانا السببين الرئيسيين وراء هذا الانحراف.
حزن على ما قد سمعه من والدته، واعدًا إياها بأنه لن يتخلى عنها بعد هذا اليوم.
تمكن "إلياس" بمساعدة عشيقه أن يسددا ديون والدته لـ "يامن"، وحاول إخراج والدته من حالتها النفسية، ومساعدتها في الإقلاع عن شرب الخمور.
أقلعت عن شرب الخمور بمساعدة "إلياس" الذي أصبح يزور والدته بشكل شبه يومي ملبيًا كل حاجتها.
استفاقت "كارمن" من هذا الكابوس الذي كانت تعيشه، لكنها لم تستطع أن تستفيق من حبها لـ "مكسيم" متسائلة عن

مصيره ومكان وجوده، خصوصًا أن الحرب كانت قد انتهت منذ مدة طويلة.

تحدثت مع "إلياس" ليس بوصفه ابنًا لها وإنما بوصفه صديقًا لها، فأخبرته بقصتها مع "مكسيم" ومع "أديب" والذي ألقى العتب كله على والده لأنه لم يقم بالاعتناء بوالدته وبعائلته، متهمًا إياه بالسير خلف النقود على حساب مصلحة عائلته واهتمامه بهم.

وعد والدته حينها فهو كان الشاب الذي يحمل في هذا الوقت عقلية غربية، بأنه سيقوم بمساعدتها..

ففي أحد الأيام، حضر اليها شقة والدته حاملًا تذكرة سفر لها إلى لبنان، قدم التذكرة إلى والدته التي راحت تطير فرحًا عندما رأتها فذهبت مباشرةً لتوضيب أغراضها، وشراء كل ما يلزمها لتسافر إلى لبنان؛ فاشترت العديد من الهدايا لعائلتها، كما أنها لم تنسَ "مكسيم" فاشترت له هو الآخر زجاجة عطر معتقدة أنها سوف تعثر عليه وسط هذا الركام الموجود في لبنان.

لم تنم ليلتين، وهي تفكر في لقائها بـ "حبيبها" لكنها كانت رغم ذلك متخوفة من مصيره غير المعلوم.

لذا وضعت كل الاحتمالات أمامها، تارة السلبية منها سواء عدم عثورها عليه، أو أن يكون قد نسيها وارتبط بامرأة أخرى، وطورًا

بالإيجابية منها ببقائه على قيد الحياة، وعثورها عليه ومحافظته على وعده بأنه سيبقى وفيًا لها.

كانت في هاتين الليلتين كالطفلة التي لا تنام في اليوم الذي يسبق قيامها برحلة، أو كالطفل الذي يسهر ليله ليقوم باللعب بلعبته حال بزوغ الفجر.

في اليوم المحدد لسفرها، آتي إليها"إلياس" للقيام بتوصيلها إلى المطار، وبقي معها إلى أن ودعها وصعدت إلى الطائرة.

عند صعودها الطائرة، جلست بجانب النافذة وراحت تعود بذاكرتها إلى عشرات السنين، تتنقل في ذاكرتها ما بين طفولتها، وعشقها لـ "مكسيم"، وتهجيرهم إلى جبل لبنان ومنه إلى بيروت ثم أوروبا.

كانت الثواني تمر كسنوات عليها، حتى أصبحت تشعر بالملل من الرحلة، وما إن وجه الطيار نداء بأنه سيقوم بالهبوط في مطار بيروت حتى صفق الجميع مسرورين بعودتهم إلى ربوع الوطن.

في هذه الأثناء، كان "مكسيم" هو الآخر ينتظر طائرته للهجرة من لبنان، ليبحث عنها في كل بقعة من أوروبا، فهو لم يعد يتحمل حياته بدونها، إذ إنه ومنذ أن توقفت الحرب وهو يعيش حالة من الخوف، الخوف من انتقام عائلات ضحاياه منه.

فقد كان يختبئ من الناس خصوصًا في بيروت الغربية، متخفيًا بوضع قبعة على رأسه، ومتنقلًا من منزل إلى الآخر.

هبطت طائرة في مطار بيروت، وفي ذات اليوم التي هبطت به طائرتها إلى مطار بيروت تم إلقاء القبض على "مكسيم" وإيداعه في السجن بتهمة القتل العمد للعديد من الأشخاص وارتكابه لجرائم حرب.

توجهت مباشرة إلى جبل لبنان للقاء عائلتها، فكان جبل لبنان الأخضر ما زال جبلًا محروقًا، أحرق خضاره كثرة المعارك وإلقاء القذائف عليه من الطرفين.

راحت "كارمن" تسأل عن عائلتها في قرية دير القمر، حتى قام أحد المقيمين هناك بإرشادها إلى مكانهم.

كانت عائلتها قد كبرت عددًا وسنًا، فإخوانها وأخواتها كانوا قد تزوجوا.

دخلت منزل والديها، فَعَلَا الصراخ من قِبل والدتها ووالدها الذان فرحا كثيرًا برؤيتها.

قدمت "كارمن" الهدايا لعائلتها بعد أن حظيت ببعض الحنان منهم، فراحت تحدثهم عن قصتها منذ خروجها من بيروت حتى عودتها إليها، ثم راحت تطلع والديها على صور ابنيها.

مكثت معهم ليلة، وفي اليوم التالي بدأت تسأل والدتها عن أخبار "مكسيم" وعائلته وما كان قد حدث بالنسبة للجيران.

اخبرتها عمن مات منهم ومن بقي على قيد الحياة، وعند وصولها للحديث عن "مكسيم" وعائلته قالت لها والدتها: إن "مكسيم" قد مات قبل خروجها من لبنان.

صرخت "كارمن" وقالت لوالدتها إنها كانت قد رأته في الميناء قبل خروجها من لبنان، وأنه كان لا يزال حيًا، وشرعت في معاتبتها لأنها كانت قد كذبت عليها، وأخبرتها بأنه قد مات لترضى بأن تتزوج بـ "أديب".

بكت والدتها وأخبرتها أنها كانت تريد من "أديب" أن ينتشلها من الفقر التي كانت تعيش فيه هي وإخوتها، وأنها لم يكن لها مصلحة شخصية من ذلك.

لم تغفر "كارمن" لوالدتها ما فعلته، فكانت تعتبر أنها هي السبب الرئيس وراء تدمير حياتها.

ولدى تكرار سؤالها لوالدتها عن مكان "مكسيم" اجابتها بأن أخباره كانت قد انقطعت منذ أن سافرت هي و"أديب" إلى أوروبا، قررت "كارمن" أن تقوم هي بنفسها بالبحث عنه.

جمعت "كارمن" أمتعتها، وأخبرت والديها بأنها ستقوم بزيارة إحدى صديقاتها في بيروت، وانطلقت في رحلة بحثها عن حبها القديم الذي كان مجهول المصير بنسبة لها.

اتفقت "كارمن" مع سائق أجرة أن ينقلها إلى بيروت، وفعل هذا السائق ما كانت قد طلبته منه.

فتوجه بها إلى أحد الفنادق هناك، فحجزت لها غرفة للمبيت، فوضعت أمتعتها بسرعة من دون أن تقوم بتوضيبها، وراحت تبحث عن المبنى الذي كانت تقيم به وهي شابة.

كانت تسأل المارة، فأرشدها أحد المارة عن الحي الذي كانت تقيم فيه، إذ إن الأحياء كانت تشبه بعضها بفعل الدمار الذي كان قد حدث خلال الحرب وإعادة الإعمار من جديد.

توجهت للحي، وراحت تستعيد ذاكرتها التي كانت قد تغبشت بفعل الزمن، فلم تجد شيئًا من المبنى القديم، فوجدت مبنى آخر تم إعماره فجلست على سلم ذلك المبنى متخيلةً أنه سلم المبنى الذي كان تقيم فيه مع عائلتها، سلم بداية قصة عشقها، فجلست في ذلك المكان الذي جلس فيه "مكسيم"، وراحت تتذكر وتحدث نفسها، فتارة تقول هنا قال لي هكذا وطورًا تقول هنا أمسك يدي.

كثيرة هي القصص التي يكون السلم هو بدايتها، فاللقاء الأول للعشاق غالبًا ما يكون هو.

كان هذا السلم هو الذكرى الوحيدة الباقية لحبها من "مكسيم"، فراحت تجلس عليه لساعات مدة بقائها في لبنان. فتذهب كل يوم تتجول في شوارع بيروت باحثة عنه، ثم تعود لتستريح على هذا السلم لعل "مكسيم" يحن لهذا المكان ويأتي لزيارته.

لم تمل وبقيت طوال إجازتها في لبنان تتردد على ذلك السلم وكأنه بيتها وبيت "مكسيم" المشترك.

انتهت إجازتها في لبنان، وقررت العودة إلى ألمانيا، لكن حالتها النفسية كانت سيئة للغاية، فأصابتها خيبة أمل مما حصل، وهي التي كانت تفضل البقاء على أمل إيجاده على ألا تذهب ولا تلقاه.

فالبقاء على الأمل بالحب رغم عدم وجوده قد يكون أفضل من التعرف على الحقيقة التي تؤكد انتفائه.

عادت إلى ألمانيا، بعد أن قامت بتوديع أهلها الذين كانوا قد قاموا بتوصيلها إلى المطار.

وفي مطار برلين، قام "إلياس"باستقبالها الذي كان يظن أن والدته ستعود مسرورة.

ولكن حينما رآها أيقن أن والدته عادت خائبة فلم تنجح بالحصول على ما كانت قد ذهبت لتحقيقه.

حاول أن يهدئها، وقال لها: يبقى الأمل موجود طالما أن الإنسان يتنفس.

فالأمل بالحب لا ينقطع إلا بعد أن يدفن الإنسان تحت التراب.

وحتى التراب لا يستطيع محو آثاره، فأثره يبقى موجودا في رائحة ذلك التراب الذي يردم فوق الإنسان.

لم تهدأ وراحت تقول لـه: إنها إرادة الرب التي حجبت عني الحب بسبب الفواحش التي ارتكبتها في حياتي.

صمت قليلًا، وأخبر والدته أنه يمكن تأجيل الحديث ليوم آخر، يومٍ قد تكونين فيه هادئة.

بدأت تصرخ، طالبةً منه أن ينقلها إلى البيت لتنام. وما إن وصلت إلى شقتها حتى تناولت بعضا من حبوب المنوم، ونامت.

هربت من الواقع الذي تعيشه، ولكنه ما هو إلا هروب مؤقت. فالمرء لا يمكن له أن يهرب من واقعه طالما أنه على قيد الحياة، فالهروب من الواقع لا يكون إلا بمواجهة هذا الواقع والتغلب عليه.

وبعد أن انتهى مفعول المواد المنومة، استيقظت وهي حزينة نادمةً حظها على ما كان قد حصل لها.

راحت تتذكر حياتها، وشقاءها مخففة عن نفسها ملقية اللوم على ظروفها، وأن هذه الظروف هي التي كانت السبب وراء انحرافها.

فراحت تتحدث عن الحياة في أوروبا وصعوبتها، وصعوبة أن تعيش بمبادئك فيها.

فهذه القارة تتطلب منك أن تتخلى عن الكثير من قيمكَ ومبادئكَ لكي تستطيع أن تندمج فيها.

فالغربة ليست كلمة تقال، هي حياةٌ جديدة لها أسس جديدة، ومبادىء وقيم جديدة ولك الخيار إما أن تعيش فيها وفق أسسها

وإما أن تعيش وفق مبادئك في عزلة، منعزل عن هذا المجتمع بحيث تصبح به غريبًا.

فالغربة ما هي إلا أن تكون غريبًا في مجتمع ما، غريبًا عن أسسه ومبادئه وقيمه وليس الغربة هي الغربة بالمكان.

فكم منا من هو غريب داخل مجتمع ولد فيه، له أفكاره وقيمه ومبادئه التي لا تتفق مع عموم أفكار الأشخاص الذين يعيشون في هذا المجتمع.

وكم منا غريب داخل عائلته الذي لهم مبادىء وقيم تختلف عن مبادئه وأفكاره.

وكم منا من هو غريب لأنه لا يعيش مع من يحبهم.

أكملت ملقية اللوم على نفسها بأنها قد انحرفت عن الطريق لأبعد حدود، فهي تلوم نفسها على ما كانت قد فعلته وأنه كان يتوجب عليها أن تحافظ على مبادئها رغم عيشتها في الغربة.

استفاقت قليلًا، آخذةً عهدًا على نفسها بأنها ستغير من نفسها، وتصرفاتها، وأنها ستأخذ من أوروبا من التصرفات، والعادات ما هو متفق مع مبادئها وأنها ستتخلى عن كل ما هو مخالف لهذه المبادىء.

ففي أوروبا كما في أي مجتمع آخر،

هناك السيء... وهناك الصالح.

هناك الاحترام ...وهناك الازدراء.

هناك الأخلاق... وهناك قلتها.

هناك الأمانة... وهناك إساءتها.

هناك التسامح... وهناك العنصرية.

هناك العلم... وهناك الجهل.

كما أنه ليس بالضرورة ما يعتبره الغرب "حرية" يعد بالنسبة لنا.

فلكل مجتمع حريته،

اتضبطها قيمه ومبادئه.

فما يرونه هم حرية... قد نراه نحن إنحرافًا.

الشواذ بالنسبة لهم حرية، لكن بالنسبة لنا يبقون شواذًا.

وما يعد من حقوق المرأة لديهم، قد لا يعد كذلك في مجتمعاتنا.

فممارسة الجنس خارج إطار الزواج، ليست حقًا للمرأة في ثقافتنا بل مخالفة لمبادئنا وأخلاقنا.

فالمرأة الشرقية يفترض أن تبقى متمسكة بثقافتها الشرقية، حتى لو عاشت في مجتمع غربي، ويتوجب عليها أن تحافظ على قيمها، رغم كل الإغراءات والإنفتاح المحيط بها.

أصبحت تذهب لعملها، وتقاوم كل الإغراءات المتاحة لها من علاقات غير مشروعة، ومشروبات كحولية، ومن توفر لعب القمار، ثم راحت تتحدث إلى "إلياس" طالبة منه الإقلاع عن ممارسة الشذوذ مع حبيبه كما يقول عنه، مطالبة منه أن يتزوج بفتاة شرقية وإنجاب الأطفال منها.

وراحت تقيم السهرات في شقتها داعيةً بعض صديقاتها وبناتهن لعله يقع في حب إحداهن.

كررت "كارمن" هذه السهرات حتى نشأت بينه وبين و"ماريا" ابنة صديقتها علاقة صداقة.

كانت "ماريا"فتاة لبنانية، ولكنها ولدت بألمانيا.

دعته لمرافقتها لتناول القهوة معها.

مرة بعد مرة، تعلق "إلياس" بـها وعلى مقدار تعلقه بها كان يبتعد عن عشيقه الذي أصبح يشعر بأنه سيخسر "إلياس". راح عشيق هو الآخر يبتعد عنه، فكانت "ماريا" ملجأ "إلياس" ليعوض حالة الوحدة التي يعيش بها.

تطورت علاقتهم، وبدأت "كارمن" تشجع "ماريا" على تعميق علاقتها بـأبنها.

وفي أحد الأيام، وأثناء خروج "إلياس" مع "ماريا" في أحد الحدائق الموجودة في مدينة برلين، قامت "ماريا" بتقبيله الذي شعر بحالة غريبة لأول مرة.

كررت قبلاتها العفوية له ومع كل مرة كانت تحرك شيئاً ساكناً في قلبه، لم يكن الأمر لمسه عابرة بنسبة له، بل كانت كأنها توقظ فيه احاسيس دفينه، تذيب جليد قلبه ببطء فتغيرت مشاعرة إلى أنجذاب أصبح لا يقدر على إنكاره.

كانت "ماريا" تخبر "كارمن" بكل ما يحدث بينها وبين "إلياس" التي كانت مسرورة بما يحدث.

وبعد مرور عدة أسابيع: عرضت "كارمن" على "إلياس" أن يتزوج من حبيبته، لم يمانع ذلك، جعلها بموافقته سعيدة وطلبت من حبيبته أن تستمر فيما تفعل وتقترب منه أكثر وأكثر.

أخبر "إلياس" والده بأنه سيقوم بالزواج من "ماريا"، فسُرَّ مما سمع، وراح يشكر "كارمن" على ما فعلته من أجل ولدها.

قدم لـه كل ما يحتاجه للزواج من نقود، وشقة وجميع المستلزمات المطلوبة.

أخذ إلياس حبيبته إلى مطعم هادئ تنبعت منه ألحان ناعمه تضفي على اللحظة سحراً خاصاً، جلسا سويا يتبادلان الأحاديث والنظرات، وفجأة قطع حديثة بنبرة دافئه وهو يقول لها:

تتزوجيني يا ملكت قلبي.

تسارعت أنفاسها وأغمضت عيناها للحظة كأنها توثق تلك اللحظة في قلبها، ثم فتحتها والدموع تلمع فيهما كنجمتين من فرض الفرح، أومات برأسها بالموافقةوهي تبتسم بخجل وارتباك،

وحين عادت إلى منزلها، هرعت إلى والدتها تحمل قلباً يكاد يقفز من صدرها، وأخبرتها بما حدث، وكأنها تهمس بسر جميل طالما حلمت به

لم تمانع والدة "ماريا" من زواج أبنتها "إلياس" رغم معرفتها بأنه كان شاذًّا جنسيًا.

قاموا بتجهيز كل شيء للعرس وقاموا بعمل حفل كبير وبعد إقامة حفل زواج بحضور العائلتين، فكانت فرحة "كارمن" و"أديب" بولدهما لا توصف.

بعد عدة عقبات نفسية استطاع "إلياس" أن يقوم بدوره كزوج لـ "ماريا" التي صبرت عليه مقدرةً حالته، ومحاولةً في كل مرة تشجيعه وإغراءه عبر القيام ببعض الحركات.

بلغت "ماريا" "كارمن" بهذه الأخبار السارة، فحمدت اللّه على مساعدته لابنها في تخلصه من شذوذه.

وبعد هذا الجهد الذي قامت به "كارمن" من أجل ولدها، أخذت علاقتها بـ "أديب" و"جوليا" ابنتها تتحسن شيئًا فشيئًا،

فراح "أديب" يدعوها للعشاء معه في أكثر من مناسبة، وقام في أحد المرات بالاعتذار لها عن تقصيره اتجاهها بفعل سعيه وراء النقود وإهماله لها ولأطفاله.

قبلت "كارمن" اعتذاره وأخبرته بأن هذا الشأن قد مر عليه زمن.

ثم أضافت بالقول: إن الذنب ليس ذنبكَ فقط، بل إني قد أذنبت بخيانتي لكَ، وكان يتوجب عليّ أن أصبر رغم أني تكلمت إليك في أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة؛ إن المرأة ضعيفةٌ أمام

المغريات التي تقدم لها، خصوصًا إذا كان من هي مرتبطة به عاجزًا عن تقديمها لها أو غير مبالٍ بتقديمها عبر إهماله لها.

المرأة كائن ضعيف أمام الرومانسية، عاطفية بالفطرة، وهكذا خلقها الله. تفرح بأبسط الأشياء كوردٍ جميل أو كلمة معبرة، فهي كائن رقيق أوبالأحرى خزان من المشاعر التي يمكن لأي شخص أن يعلقها بكلمات بسيطة، شرط أن تكون صادقة نابعة من القلب.

وهي تحزن أيضًا بأبسط الأقوال حتى لو كانت غير مقصودة أو حتى من الإهمال والإمتناع عن إتيان أفعال تعني لها الكثير.

الحب لا يحتاج إلى نقود، بل إلى كلامٍ رقيق ينبع من القلب.

فالكلمة بين العاشقين ليست جمع من الحروف بل إحساس صادق تُرجم إلى حروف.

كما أن الورود ليست مهمة بشكلها، بل قيمتها تنبع من الشخص الذي يُقدمها..كما أن الأماكن التي نعيش فيها لا تحمل أي قيمة ما لم يكن من نحب فيها.

كل الأشياء المادية لا تعني الكثير للمرأة، ما يعنيها حقاً هو القيمة المعنوية.

المرأة إذا أحبت رجلًا،

نظرت إلى ميزاته وتناست سيئاته،

حتى لو إمتدت تلك السيئات على مساحة الأرض بأكملها.

كم من امرأة أحبّت رجلًا لصفة واحدة فيه، وتجاوزت عن كل عيوبه.

بل أكثر من ذلك...

المرأة إذا أحبت...

ترى في سيئات من أحبّت ميزات.

فقلة الأدب قد تبدو لها قوة شخصية،

ووقاحته قد تعتبرها صراحة زائدة.

المرأة إذا أحبت فهي تحكم على نفسها بالأسر، تصبح أسيرة حبّها، حتى لو رحل عنها من أحبت.

الخيانة لا تولد من نقص النقود، بل من نقص المشاعر. فقط هذا النقص ما يدفع المرأة إلى خيانة حبيبها.

كنت تبوح بأسرارنا لصديقكَ الذي كان يدرك ما كان لدي من نقص في المشاعر، فيقوم بإرسال قريبه ليسدها لي.

فالزواج ليس مجرد عقد، بل أمانة... أمانة على النفس التي نرتبط بها وعلى كل ما تحيط بهذه النفس من أسرار وعيوب.

كما أنه ليس صحيحًا أن الزواج نهاية للحب، فالزواج ليس سوى حب اقترن بورقة، حب يحتاج إلى تجديد دائم، وقد يكون تجديده بكلمة طيبة، بوردة من الرصيف أو حتى بنزهة بسيطة تحت المطر.

الزواج ليس مجرد استقرار وأولاد، بل قبل كل شيء هو مشاعر تجاه من نحب.

فمتى توقفت تلك المشاعر،

لن يتوقف الحب فقط،

بل سيتوقف الزواج أيضًا.

ويتحوّل إلى مجرد سكن مشترك بين رجل وامرأة لا يربطهما سوى المعاشرة، لا المودة.

كانت مشكلتنا يا "أديب" أنكَ بعد أن تزوجتني خطر في بالك أنك ملكتني، كالطفل الذي يبكي للحصول على لعبة وبعد أن يتملكها يلعب بها ساعة يشاء، ويطرحها جانبًا ساعة يشاء. صحيح أنني قد بالغت بخيانتي لك لكنني لم أكن في كامل وعي، فالمشاعر هي الأخرى قد تقوم بتخدير الإنسان فيفقد وعيه، وهذا ما كان قد حصل معي.

حزن "أديب" لما قد سمعه من "كارمن"، وطلب منها أن تسامحه وأن تفتح معه صفحة جديدة، خصوصًا أن ابنتهما "جوليا" ما زالت تعاني من مشكلة الشواذ، وعليهما معًا أن يعملا لإخراجها من هذه الحالة كما أخرجت "كارمن" "إلياس" من حالة الشذوذ التي كان يعاني منها.

أخبرته "كارمن" أن "جوليا" لا تستمع لها بخلاف "إلياس"، وهذا يتطلب جهدًا مضاعفًا من قِبلها لكي تتقبل "جوليا" كلامها.

أخبرها "أديب" أنه سيقوم بمساعدتها عبر تحسين العلاقة بينها وبين "جوليا"، طالبًا من "كارمن" أن تأتي لزيارتهما في المنزل بشكل متكرر.

بدأت تزور "أديب" بشكل متكرر محاولة تعميق العلاقة بينها وبين ابنتها.

كانت "جوليا" ما تزال كارهه والدتها معتبرة أنها كانت قد تخلت عنهما من أجل شهواتها.

تفهمت "كارمن" الحالة النفسية لـها، فراحت تتصرف بهدوء مع كل تصرف غير لائق تقوم به "جوليا".

ومع مرور الوقت، وصبر "كارمن" عليها، بدأت "جوليا" تشعر بالندم تجاه والدتها، وأنها كانت قد قست عليها خصوصًا بعد أن قام والدها بالتحدث إليها وشرحه لها عن أسباب قيام والدتها لفعل ما فعلته.

بدأت "جوليا" تقترب من والدتها شيئًا فشيئًا، وما كان من "كارمن" إلا أن تحاول تقديم أفضل ما لديها لابنتها سواء مشاعر أو بعض الهدايا بين الحين والآخر.

شرعت "كارمن" في نهاية كل أسبوع تدعو "جوليا" لتناول العشاء معها، وهي لم تبخل أن تفاجئها يوم عيد ميلادها بدعوة جميع صديقاتها وعائلتها للاحتفال معها بعيدها.

فقدمت لها هدية مميزة، وقالب حلوى يتوسطه صورة لـ "جوليا" وهي صغيرة.

وبعد أن قامت بتقديم الهدية لـ "جوليا".

قبلتها منها وهي في قمة سعادتها أمتلئت عيناها بالدموع بسبب ما كانت قد اقترفته تجاه والدتها، واعتذرت منها على كل ما حدث منها.

وسط هذه المشاعر الجياشة وعدتها "كارمن" بأنها لن تتخلى عنها بعد اليوم، وستبقى بجانبها دائمًا، وستصطحبها إلى كل مكان تذهب إليه.

بدأت تحاول إشغال "جوليا" بالسهر، وقضاء سهرات خارج المنزل لكيلا تقوم بعدم التفكير بالشذوذ الجنسي وممارسته مع تلك الشابة التي على علاقة معها.

وفي إحدى السهرات، تقدم شاب من الطاولة التي تجلس عليها "جوليا" و"كارمن"، وطلب منها أن تشاركه الرقص.

رفضت "جوليا" ذلك، ولكن بعد أن حثتها والدتها على القبول، قامت من على طاولتها، ورقصت مع ذلك الشاب.

وما إن انتهت الحفلة حتى سألتها والدتها عنه، فأخبرتها أنه شاب فيه شيء مميز فقد كان معها في غاية اللياقة والأدب.

راحت "كارمن" كل نهاية أسبوع تصطحبها إلى ذلك المكان، لمقابلة ذلك الشاب لعله يكون خلاصها من شذوذها.

وفي كل مرة تذهب فيها "جوليا" برفقتها إلى ذلك المكان، يقوم ذلك الشاب بدعوتها للرقص معه فأصبحت معتادة على هذا الأمر في كل مرة تقوم فيها بزيارة المكان.

وفي إحدى المرات، ذهبت برفقة "كارمن" كالمعتاد إلى ذلك المكان إلا أن هذا الشاب لم يكن موجودا هناك، فراحت "جوليا" تنظر إلى الباب في كل مرة يدخل فيها أحد الزبائن.

أحسست "كارمن" بذلك، وسألت "جوليا" إذا ما كانت تبحث عن شيء أو تنتظر أحدا، فأجابتها "جوليا" بالنفي، وأنها تنظر فقط للزبائن لعلها تكون تعرف أحدا منهم.

ضحكت "كارمن"، وقالت لابنتها: لا عليك، فهو سيأتي بالطبع.

غضبت بعض الشيء، وقالت لوالدتها: من هو الذي سيأتي، فأنا لا أنتظر أحدًا؟

قالت لها "كارمن": لعل شخصًا من الأشخاص الذين تعرفينهم يأتي.

صمتت "جوليا" قليلًا، وطلبت من والدتها أن تقوم بتوصيلها إلى شقة والدها.

بعد إصرارها على مغادرة المكان، قامت "كارمن" ما طلبته منها، فقامت بتوصيل "جوليا" إلى شقة والدها.

في هذه الليلة، كانت "جوليا" حزينة لما حصل معها إذ إنها كانت قد بدأت تعتاد على هذا الشخص، فأصابتها حالة من الاكتئاب.

في اليوم التالي، حضرت "كارمن" باكرًا إلى شقة "أديب"، فكانت "جوليا" ما تزال نائمة، فأيقظتها طالبةً منها أن تقوم بمرافقتها إلى التسوق.

بعد أن قامت بتحضير نفسها، ذهبت مع والدتها لتناول الفطور في أحد المطاعم القريبة من السوق، ثم ذهبتا معًا من أجل شراء بعض الملابس.

وما إن انتهيا من التبضع حتى طلبت "جوليا" من والدتها أن يذهبا لتناول بعض قطع الحلوى في أحد الأماكن المخصصة لتقديم الحلوى بالجبن.

وافقت "كارمن" على طلبها، وما إن دخلتا المطعم حتى رأت "جوليا" ذلك الشاب الذي عرفت أن اسمه "سيزار" وكان يرقص معها في الغالب في مكان السهر الذين كانوا يترددون إليه.

فدخلت من دون أن تعلم "كارمن" بأنها قد رأته، فجلست هي ووالدتها على إحدى الطاولات.

وما إن طلبتا من النادل بعض الحلويات والمشروبات حتى جاء "سيزار" إلى طاولتهما ليلقي عليهما التحية.

فحضر "سيزار" إلى الطاولة وكانت "كارمن" مسرورة جدًا لرؤية "سيزار" إلا أن "أبنتها" كانت جافة بالتعامل معه.

فطلبت منه "كارمن" أن يجلس معهما، فاعتذر "سيزار" منها لأنه يجلس مع رفيق له على طاولة أخرى.

غادر "سيزار" بعد إلقاء التحية واعدًا "جوليا" أنه سيرقص معها في نهاية الأسبوع في الملهى الليلي الذي يرتادونه عادةً.
هنا أخبرته "جوليا" بأنها لديها الكثير من الأعمال للقيام بها في نهاية الأسبوع، وأنها قد لا يكون لديها متسع من الوقت للسهر.
فما كان من "كارمن" إلا أن تدخلت، وأخبرت "سيزار" بأنهما ستذهبان كالمعتاد إلى ذلك الملهى.
غادر "سيزار" الطاولة، وتناولت كل من "كارمن" و"جوليا" قطعًا من الحلوى مع شرب بعض العصائر.
وأثناء تناولهما الحلوى، سألت "كارمن" ابنتها عن سبب تصرفها بهذا الأسلوب مع "سيزار".
أجابتها بأنها لا تريد أن تذهب إلى ذلك الملهى بعد اليوم، وأنها ستقوم بإشغال نفسها في أمور أخرى.
وما إن انتهتا من تناول الحلوى وشرب العصائر حتى خرجتا من المطعم، وتوجهتا إلى شقة "أديب".
حاولت "كارمن" هناك أن تتحدث إلى في هذا الموضوع إلا أن "جوليا" أصرت على عدم الحديث فيه.
في نهاية الأسبوع، وتحديدًا في يوم السبت، حضرت "كارمن" مرتديةً أجمل ملابسها وبكل أناقتها إلى شقة "أديب" لتحاول أن تقنع أبنتها للذهاب معها للسهر في ذلك المقهى الليلي، إلا أن "جوليا" أصرت على عدم الذهاب.

غادرت "كارمن" الشقة، وراحت تفكر في إمكانية إقناعها للخروج معها للسهر، فما كان منها إلا أن ذهبت إلى ذلك الملهى الليلي باحثة عن "سيزار".

وعندما عثرت "كارمن" عليه، طلبت منه أن يذهب معها لإقناع "جوليا" أن تأتي للسهر معهما.

لم يمانع "سيزار" في ذلك، وأثناء سيرهما بسيارة "كارمن" طلب منها أن تتوقف ليقوم بشراء بعد الزهور ليقدمها لـ "جوليا".

وما إن قرعت "كارمن" جرس الباب حتى تفاجأت "جوليا" بـ "سيزار" الذي قدم لها الزهور طالبًا منها أن تقوم بتبديل ملابسها للخروج معهما للسهر.

إزاء إصرار "سيزار" على ذلك، ذهبت إلى غرفتها، وراحت تختار أجمل الملابس لترتديها للخروج معهما للسهر في ذلك الملهى الليلي.

كانت في هذه الليلة مسرورة جدًا خصوصًا أنها أمضت ليلتها بالرقص مع "سيزار" تحت أنظار "كارمن" التي كانت سعيدة هي الأخرى بما يحدث لعل قلب ابنتها يتعلق بـ "سيزار"، وتخرج من حالة الشذوذ الجنسي الواقعة فيه.

نشأت بين "جوليا" و"سيزار" علاقة متينة يمكن وصفها بإعجاب بعضهما بالبعض الآخر، ومع مرور الأيام انقلبت هذه العلاقة إلى

علاقة حب جمعت بينهما خصوصًا بعد الاهتمام الزائد من قِبل "سيزار" بـ "جوليا"، وساعدته في ذلك "كارمن".

نصحت "كارمن" "سيزار" بالارتباط بـها فلم يمانع في ذلك، فتقدم "سيزار" لها طالبًا منها الزواج في نفس المطعم الذي شهد حبهما.

وافقت على طلبه بدون أن تفكر، وعندما عادت إلى بيتها أخبرت والدها برغبة "سيزار" الارتباط بها، فرح والدها ولم يتأخر عن إبداء موافقته على ذلك، بل وتقديم المساعدة المالية لـ "جوليا" وعريسها.

كان كل من "أديب" و"كارمن" مسرورين بالتغير الذي حدث في حياة ولديهما، وزاد من هذه الفرحة بعد أن أعلم "إلياس" والدته بأن زوجته حامل وتحمل في أحشائها طفلًا.

وبعد مرور عدة شهور أنجبت زوجة "إلياس" طفلًا، واحتار الجميع في تسميته، إلا أن "إلياس" الذي أراد مكافأة والدته على فعلها اختار أن يسميه "مكسيم" على اسم حبيب أمه السابق الحالي.

هذا الفعل لم يكن سارًا لـ "كارمن"، إذ إنها كلما رأت هذا الطفل، راحت تتذكر حبيبها "مكسيم".

كان "مكسيم" في هذه الأثناء كان قد أقترب موعد خروجه من السجن الذي قضى به فترة، وكانت "كارمن" في هذه الفترة لا

تفارق مخيلته أثناء وجوده في السجن فتارةً يرسم شكلها بعد هذه المدة وطورًا يكتب بها بعض القصائد.

واستمر "مكسيم" على ذلك الحال إلى حين خروجه من السجن ساعةً يكتب وأخرى يرسم "كارمن" بمخيلته.

وما إن خرج من السجن حتى قرر أن يهاجر، فقرر قلبه الهجرة إلى ألمانيا ذلك المكان الذي تمكث فيه معشوقته "كارمن" ولكنها بنسبة له مجهولة العنوان، فهو علم فقط بالبلد التي تمكث فيها من أخاها.

وبعد العديد من الاستفسارات تعاقد "مكسيم" مع سمسار ليوصله إلى ألمانيا من لبنان.

وما إن وصل إلى ألمانيا، حتى قدم لجوءه فيها وتم فرزه مع العديد من اللاجئين القادمين من لبنان في مقاطعة كانت تتبع لما يسمى بألمانيا الشرقية التي كانت دولة قائمة بذاتها تفصل بينها وبين ألمانيا الغربية الجدران الشاهقة.

كان "مكسيم" يعيش في مدينة بوتسدام التابعة سابقًا لألمانيا الشرقية و"كارمن" في برلين الغربية، وكأنهما يعيشان في بيروت التي كانت مقسمة أثناء خروج "كارمن" من لبنان بين شرقية وغربية.

حاول "مكسيم" أن يبحث عنها في ألمانيا بأكملها وهو لم يتوان بسؤال كل عربي يراه عنها وعن عائلتها إلا أن هذا الأمر كان أمرًا مستحيلًا.

وبعد تعب "مكسيم" من البحث عنها، راح يجلس كل يوم في حديقة الفندق الذي منحته دولة ألمانيا غرفة فيه ليقيم بها يفكر بها وبمكانها.

وفي أحد الأيام، وأثناء حديثه مع رجلٍ عربي يقيم معه في نفس الحي، أخبره ذلك الرجل أنه ليس بالضرورة أن تكون "كارمن" هنا في مقاطعات ما كان يعرف بألمانيا الشرقية فقد تكون في ألمانيا الغربية، فهناك الكثير من اللاجئين الذين أتوا إلى ألمانيا الغربية وبقوا فيها، وقد تكون هي منهم.

أصابت "مكسيم" حالة من اليأس، وراح يفكر في كيفية الذهاب إلى برلين بوصفها العاصمة التي قد تستقطب العدد الأكبر من اللاجئين، خصوصًا إذ إنه كان قد سمع أن هناك الكثير من اللاجئين اللبنانيين قد توطنوا فيها.

كانت ألمانيا الغربية تفرق كثيرًا عن مقاطعات ما كان يسمى بألمانيا الشرقية فهي بلد غني وشعبها مرفهٌ إلى حد ما، بينما

مقاطعات ألمانيا الشرقية كانت لا تزال مقاطعات فقيرة جدًا قد لا يجد شعبها ما يأكله.

فمواطنو ألمانيا الشرقية كانوا محرومين حتى من الكثير من المواد الغذائية، والفاكهة والخضار لدرجة أنهم بمجرد دخولهم إلى ألمانيا الغربية راحوا أول ما يبحثون عنه هو الطعام الذي من المفترض أن يكون متوفرا لكل إنسان بوصفه أحد حقوق الإنسان الرئيسة.

ذهب "مكسيم" إلى برلين وراح يفتش عن العرب فيها، فيتحدث إلى المارة باللغة العربية الذين يعتذرون منه لأنهم لا يتقنونها، بل ويحاولون مضايقته لأنه لا يتحدث الألمانية.

راح "مكسيم" يسير في هذه الشوارع لعله يصادف أحدًا يتحدث إليه، ويرشده إلى مكان حبيبته التي كانت لا تغادر شقتها إلا للعمل وزيارة ولديها.

وأثناء سير "مكسيم" في أحد الشوارع صادف أحد المحال التجارية التي تحمل اسمًا عربيًا.

دخل "مكسيم" ذلك المحل، فطلب منه بعض الفلافل، وراح يتحدث إلى العاملين هناك إذا ما كانوا يعرفون أحدًا مسيحيًا عربيًا مقيمًا في برلين.

فأجابه أحد العاملين أن هناك الكثير منهم الذين أتوا إلى برلين بعد نشوب الحرب في لبنان.

فسأل "مكسيم" عن "كارمن"، فأخبره العاملون أنهم لا يعرفون أحدًا بهذا الاسم.

أكمل "مكسيم" طريقه، وهو يحاول العثور عليها، ولكن دون جدوى.

عندما حل الظلام كان "مكسيم" متعبًا لا يقوى على العودة إلى غرفته في الفندق ولم يكن يعلم أين سيبيت ليلته، فشاهد بعض المتسولين يفترشون الأرض وينامون هناك، فقرر "مكسيم" مشاركتهم في افتراش الأرض والمبيت هناك.

كان مرهقًا من السير على الأقدام طوال النهار، فنام نومة واحدة، ولم يستيقظ حتى قامت الشمس بإيقاظه بعد إشراقها.

في اليوم التالي، عاود "مكسيم" سيره في برلين، وراح يسأل عن أماكن تواجد العرب بها، فأخبره أحد المارة أن العرب موجودون في برلين في كل مكان، وأنه استحالة العثور على ما يريد إلا لو كانت مصادفة.

استمر في البحث عنها وهو يقول في نفسه: إن المحاربين لا يستريحون حتى انتهاء الحرب، ويكون انتهاؤها إما بالنصر أو بالموت.

والنصر في هذه الحرب يكون بالعثور على "كارمن"، أما الموت فيكون بهلاكه.

أكمل "مكسيم" سيره، ويتمسك في كل شخص يراه يسأله عنها دون جدوى.

استمر هذا الحال أيامًا ولياليَ، وهو يسير على الطريق نهارًا، ويستحم في أحد الأنهر مع حلول الظلام، ويفترش الأرض ليلًا.

وأثناء نومه في أحد الليالي، حضرت الشرطة التي سألته عن أوراقه الثبوتية.

وبعد أن قدم "مكسيم" أوراقه الثبوتية، واتضح لدى المحقق أنه لاجىء، طلبت منه الشرطة أن يعود إلى ألمانيا الشرقية لأنه يمنع عليه وفق القوانين الألمانية أن يغادرها طالما هو لاجىء.

حاول "مكسيم" أن يشرح للمحقق أسباب وجوده في ألمانيا الغربية إلا أن الشرطة ألزمته بالمغادرة.

قامت عناصر الشرطة بإلزامه بالعودة إلى غرفته في الفندق المقدمة من سلطات اللجوء.

فلم يجد أمامه غير أنه يعود وعند وصوله إلى الفندق دخل غرفتة، وكان مرهقاً متعباً.

فدخل إلى الحمام فاستحم، وأصر على أن يعود حتى يجد "كارمن".

حاول بعض أصدقائه أن يرفه عنه قليلًا، فطلب منه أن يرافقه

لمشاهدة ما تبقى من الجدران التي كانت تفصل ما بين ألمانيا الغربية والشرقية.

وما إن وصلا إلى ذلك المكان حتى قال له صديقه: ما إن صدر القرار بإعادة الوحدة بين الألمانيتين، حتى تم تدمير هذا الجدار الشاهق الفاصل، فنظر "مكسيم" إلى بقايا الجدار وراح يقول: يا ليت كل الجدران التي بيني وبين "كارمن" هي جدران إسمنتية، فهذه مقدور عليها، ولكنني أخاف من أن يكون قد حجب بيني وبينها جدار آخر وهو حبكِ لشخص آخر.

فكل الجدران قد يقدر الإنسان على اختراقها إلا الجدار الذي قد يكون حصنه قلبكِ بالحب، فحبكِ لشخص آخر قد يكون جدار يعصى على الاختراق.

ثم يضيف "مكسيم" بالقول: سأتخطى جدارا وراء جدار حتى أعثر على قلبك خاليًا من كل الحصون والجدران التي قد تكون محيطةً به.

دخل "مكسيم" مرة أخرى برلين يبحث عنها رغم عدم يقينه إذا ما كانت في برلين أو في مقاطعة أخرى مما كان يسمى بألمانيا الغربية، ولكن كان قلبه كقلب كل عاشق دليله يقول له: نعم إنها هنا.

راح يسير ويسير في برلين لعله يعثر على أثر لها.

وبعد تكرار المحاولة أكثر من مرة التقى بأحد الأشخاص من الجالية العربية في برلين الذي نصحه بالذهاب إلى الشرطة للاستعلام عنها.

سُر "مكسيم" مما سمعه، وطلب من هذا الشخص أن يساعده في ذلك.

أخذه هذا الشخص بيده إلى أحد المقاهي العربية ليقوم أحدٌ من الجالية العربية الموجودين هناك بمساعدته بالترجمة لدى قسم الشرطة.

وما إن دخلا هذا المقهى حتى قام صاحبه بالطلب منه بالاستراحة حتى يأتي أحد ممن يتقنون اللغة الألمانية ليرافقه إلى قسم الشرطة لمساعدته في الترجمة.

وما إن أتى أحدهم حتى طلب منه صاحب المقهى أن يقوم بمرافقة "مكسيم" إلى قسم الشرطة ليقوم بمساعدته.

لم يمانع هذا الشخص في مساعدتة، وذهبا معًا.

وأثناء سيرهما في الطريق سأله "مكسيم" إن كان يعرف "كارمن"، فأجابه هذا الشخص بالنفي.

وبعد أن دخلا قسم الشرطة، طلب "مكسيم" من الشرطة بمساعدة المترجم أن يرشداه إلى مكان "كارمن".

ولدى سؤال الشرطي هناك عن صلة القرابة التي تربطه بـ "كارمن"، فادعى "مكسيم" أنها ابنة عمه.

وما إن سأل الشرطي عن اسمها بالكامل حتى أصاب "مكسيم" حالة من الارتباك، فتخوف من أن تكون "كارمن" قد حملت اسم زوجها الذي لا يعرفه، ولكن لحسن حظه أن "كارمن" كانت مطلقة، فهي عادت وحملت اسم والدها.

وعند التدقيق والبحث تم العثور على عنوانها، وسجل الشرطي العنوان له.

وما إن غادرا المكان حتى سأله المترجم حول كيفية الوصول إلى العنوان، فأرشده المترجم.

تشكر المترجم، ومضى في طريقه إلى العنوان المذكور. وبعد سؤاله لبعض المارة استدل على عنوانها.

وما إن وصل باب الشقة، ورأى اسمها مسجلًا على الباب حتى أخذ تنهيدة عميقة فقلبه يخفق بقوة كان غير مصدقاً أنه بعد ثواني سيرا حبيبته التي أبعده عنها القدر لسنوات.

بدأ يقرع جرس الباب بقوة، لكن "كارمن" لم تكن في الشقة في هذا الوقت.

انتظر أمام باب الشقة، فمضت ساعات ولم تحضر "كارمن". وأثناء جلوسه على السلم، شاهده أحد جيرانها الذي سأله باللغة الألمانية لما هو جالس على السلم، ومن ينتظر؟ لكنه لم يفهم ما يقصده هذا الشخص فهو لا يتقن اللغة الألمانية.

طلب منه ذلك العجوز جارها المغادرة، إلا أنه بقي جالسًا، وتذرع بعدم إدراكه لما يقول، لذا تركه وغادر.

انتظر وقلبه يدق أضعافا أضعاف في الثانية، كمن ينتظر استرداد قلبه الذي رحل منذ سنين.

إنه الانتظار وما أصعبه على العشاق والمتيمين.

مضى الوقت حتى حل الظلام، وهي لم تأتِ.

غادر المكان خائبًا، وكأنه فقد حبيبته مرة أخرى.

رحل عائدًا إلى غرفته في الفندق في ألمانيا الشرقية، وجلس في هذه الغرفة يفكر ماذا يمكن أن يفعل.

بقي طوال الليل يحدق في الجدران، ينظر من النافذة لعل شيئًا خارقًا يهديه على طريق "كارمن".

في الصباح الباكر، غادر "مكسيم" غرفته وتوجه إلى شقتها مرة أخرى، فقرع الجرس ثم أعاد قرعه لكن لم يفتح أحد، وكأنها شقة مهجورة.

جلس "مكسيم" على السلم طوال اليوم، ثم غادر المكان مع حلول الظلام وهو في حالةٍ نفسية سيئة.

كرر محاولته لمدة أسبوع، ولكن كان ذلك دون صدى، فـ"كارمن" غائبة وكأنها تغربت مرة أخرى.

وفي اليوم الثامن، وأثناء جلوسه على السلم منتظرًا كعادته، حضر شابٌ وسيمٌ، وطلب منه الابتعاد قليلًا لأنه سيدخل الشقة.

وبعد أن ابتعد "مكسيم" عن الطريق، دخل في قلبه الشك، وراح يعتقد أن "كارمن" قد انتقلت من شقتها إلا أنه بقي جالسًا إلى أن خرج ذلك الشاب من الشقة.

وما إن خرج الشاب من الشقة حتى سأله باللغة العربية إذا ما كان يمكنه مساعدته، فقال له الشاب: تفضل.

سُر "مكسيم" أن الشاب يتحدث العربية، فسأله عن "كارمن".

ابتسم الشاب، وقال له: أنت "مكسيم"؟

سأله كيف عرف اسمه؟

فأخبره الشاب أنه "إلياس" ابن "كارمن"، وهي لم تكن تمل من الحديث عنك.

سُر "مكسيم" بما سمعه، وكأنها جرعة تنفس أعطيت لغريق.

ولكنه دون التفوه بكلمة أخري بدأ "إلياس" في البكاء، وأخبره أن والدته كانت تزور أحد أقاربهم في مقاطعة أخرى في ألمانيا الغربية، وقد تعرضت لحادث سير وهي بين الحياة والموت في أحد المستشفيات في مقاطعة أخرى من ألمانيا الغربية.

ضرب "مكسيم" على رأسه، وطلب منه أن يأخذه إليها وافق، وأخبره أنه سيذهب إلى هناك في الحال، وأنه أتى خصيصًا ليأخذ بعض الأمتعة إلى والدته.

صعد "مكسيم" سيارة "إلياس"، وكأنه غير موجود؛ فلم يتبق منه سوى جسده.

كان كمن مات له أحدٌ، الذي يأخذ معه قلوب محبيه ولا يبقى منهم سوى أجسادهم.

كان "مكسيم" جالسًا صامتًا و"إلياس" يحدثه حول كيفية استدلاله على مكانهم.

راح يحدثه، ويقطع الحديث بين الحين والآخر غصة في قلبه حول ما حدث لـ "كارمن".

يجلس على النافذة، ويلوم نفسه على ما فعله، وكم من شخص حرم من عزيز له.

راح يقول: لا يضيع شيء عند الله، فهو ينتقم لكل ضعيف. فها أنا حرمت البعض من أحبائهم وهو سيحرمني ممن أحب.

بقي طوال الطريق يدعو ربه أن يراها لو لثوانٍ ليقول لها: ها أنا وفيت بوعدي لكِ، فقطعت بحارا وأراضيَ، وسهرت لياليَ لكي أوفي لكِ بما وعدتك به.

كانت السيارة تسير بسرعة جنونية بحسب عداد السيارة، ولكنها تسير ببطء شديد وفقًا لعداد قلب "مكسيم".

فالانتظار للعاشق لا يقاس بالزمن وإنما بصبر القلب.

مرت ساعات وهو ما زال ينظر من النافذة، وكل ما فيه بكامل انشغاله، عيناه، قلبه، علامات وجهه، كل ما فيه في أنتظار رؤية حبيبته.

إنه الحب...ذلك الذي يشغل في الإنسان كل حواسه دفعة واحدة: اللمس، البصر، التذوق، الشم والسمع.

فما قيمة هذه الحواس إذا لم تهد كلها للمعشوق؟.

ما قيمة النظر إذا لم يكن لنتأمل وجه من نحب؟

وما قيمة السمع إذا لم يكن لنصغي لصوته؟

وما قيمة التذوق إذا لم يكن لنتذوق طعم قبلاته؟

وما قيمة الشم إذا لم يكن لنستنشق عطره؟

وما قيمة اللمس إذا لم يكن لملامسة دفء جسده؟

لا شيء كالحب، الذي يجعل كل ما فينا ليس لنا وإنما لمن نحب.

وصلت السيارة المستشفى المنشودة، مكان إقامة "كارمن".

نزل "إلياس" من السيارة، وطلب منه أن ينزل، إلا أنه لم يستطع في البداية وكأن شيئًا يمسك به وينزله إلى الأسفل.

حضر "إلياس" إلى الجهة الذي يجلس فيها، وحاول مساعدته على أن يقف على رجليه.

وبعد مساعدة "إلياس" تمكن من الوقوف على رجليه، وكأنه عجوز بلغ من الكبر ما بلغ.

كان ممسكاً بيده لمساعدة على المشي فهو كان يسير ببطء شديد خطوات تكاد أن تعدها بسهولة.

خطوتان إلى الأمام، وخطوة إلى الوراء وكأنه يتوجه إلى حبل المشنقة.

وبعد أن عانى "إلياس" مع "مكسيم"، طلب منه أن يسرع في خطواته وصل الاثنان إلى غرفة العناية المركزة. كانت "كارمن" تنام على سريرها في تلك الغرفة، ويحاط بها كل أنواع الأجهزة لدرجة لا يمكن رؤية شيءٍ منها.

تقدم "مكسيم" إلى الغرفة، وألقى عليها السلام من الخارج بدموع تكاد ألا تتوقف.

وما إن ألقى "مكسيم" السلام على "كارمن" حتى راحت تتحرك بصعوبة، وكأن قلبها أحس بوجوده في المكان.

هذا هو الحب الذي يُحيي الميت، حتى لو كان قد دفن، فالدفن دفن الأجساد وتبقى القلوب خالدة محيطةٌ بنا أينما ذهبنا. كم من شخص رحل جسده وبقي قلبه في قلوب الناس. كم من عزيز لنا دفناه بأيدينا، ولكن عدنا حاملين قلبه الذي لم يفارقنا إلى هذا الحين.

كم من مسافر ودعنا وما زلنا نزور الأماكن التي جمعتنا به. إنه الحب، الذي لا مثيل له، والذي لا غنى عنه حتى تعمر هذه الحياة.

فقد يستطيع الإنسان أن يعيش بلا هواء، بلا ماء، بل وبلا طعام لكنه قد يستحيل عليه أن يعيش ثانيةٍ بلا حب، فلا وجود للإنسان بلا حب.

كاذب من يعتقد أنه يستطيع أن يعيش بلا حب، وحتى الأمل بالحب حب، والانتظار حب، حتى الفراق فليس هو إلا حب. فكثيرًا ما نفترق عمن نحب لأننا أحببنا له الأفضل وهو أحب لنا عدم المعاناة.

غادر "مكسيم" المكان برفقة "إلياس" لكن قلبه ما زال موجودًا يتفقد "كارمن"، ويطبطب عليها.

طلب "إلياس" منه مرافقته إلى منزل أحد معارفهم المقيمين في المقاطعة.

لم يعترض "مكسيم" على طلبه خصوصًا أنه غريبٌ في هذه المقاطعة، حتى أنه لا يتقن اللغة الألمانية.

ذهبا معًا إلى منزل معارف "إلياس" و"كارمن"، وبعد أن تناولا قليلًا من الطعام، طلب "إلياس" منه مرافقته لتناول بعض القهوة في الخارج.

فخرجا سويًا، وجلسا في أحد المقاهي، وراح "إلياس" يطمئنه على "كارمن"، ويعده أنها ستكون بخير، فراح يحدثه عن نظام الطبابة وجودته العالية في ألمانيا، وأنها تعتني كثيرًا بالمرضى لديهم.

أطمن "مكسيم" قليلًا، ثم أرتعش جراء بعد أنه تذكر كمية الأجهزة الموضوعة لـها.

طلب منه "إلياس" أن يحدثه عن حبه لأمه، سرح "مكسيم" لثواني فظهرت الأبتسامة على وجه وتذكر بداية علاقته بـ "كارمن" منذ أن كانت في سن المراهقة.

فقال له: المرأة كالقهوة مرةٌ لمن كرهها ولذيذة المذاق عذبةٌ لمن يعشقها، وأنا قد عشقتك والدتك فكان السلم مكان العشق، فهو قاعة انتظار العشاق.

وما له من مكان فتحس برائحة عشيقك تقترب كلما تسلقت أو نزلت درجة.

كان والدتكَ تحبني وكنت أحس بذلك من نظراتها، وانتظارها لي على ذلك السلم، فكانت تحاول أن تكون هناك في أي دقيقة أنزل فيها السلم.

هي آيةٌ في الجمال، وكأنها لا تختلف بجمالها عن جمال الأساطير الذي كنا نسمع به.

كانت خجولة، لا تحدثني إلا إذا قمت أنا بالحديث إليها.

كان الحب في ذلك الوقت جميلا، كان هو الحياة، فالإنسان لم يكن يحيا إلا ليحب ويُحَبّ.

أما الآن فقد تغير كل شيء حتى الحب.

كان الحب مبنيًا على التقاء القلوب، أما الآن فهو مبني على التقاء المصالح.

فقد كان الحب مبنيًا على الرضاء بالقليل والاكتفاء بالحبيب، أما الآن فهو مبني على المظاهر الخداعة من ممتلكات ومجوهرات وأموال.

كان فيه النقاء والصدق حتى عند الفراق، أما الآن فالفراق يغلف بالحقد والضرر لمن كان حبيبنا في السابق.

كل شيء تغير حتى أحوالنا تغيرت... ونفوسنا لم تعد كما كانت.

كنا أنقياء، وأصبحنا ملوثين.

كنا صادقين، وأصبحنا مخادعين.

كنا أوفياء، وأصبحنا محتالين.

كنا رحماء، وأصبحنا حاقدين.

كنا أبرياء، وأصبحنا متهمين.

كنا طامحين، وأصبحنا عاجزين.

كنا خلوقين، وأصبحنا وقحين.

كنا طيبين، وأصبحنا مجانين.

صدقني...

الدنيا لم تتغيّر.

نحن من تغيّر.

نفوسنا هي التي انقلبت.

صرنا نصف السارق ب"الشاطر"،

المحتال ب"الذكي"،

والطيب ب"المعتوه"،
وقليل الأدب ب"الجريء".
هذا الزمن يا بُني... غريبٌ علينا...أينما وُجدنا.
ففيه جفت كلمات الحق، وتكسرت أقلام العدل.
صرنا نلتقط الصور مع من يعاني، دون أن نحاول إنهاء معاناته.
منافقون نحن...
لا نتحدث إلا عن العفّة، وأطهرنا كلبٌ أجرب.
نحمل الحقد حتى على أنفسنا،
وإذا قيلت لنا الحقيقة...غضبنا.
مزيفون في مضمونا، كما في مظهرنا.
نعشق كذب الآخرين...إن وافق هوانا.
لا نقول إلا زورًا،
حتى على اللّه ...نحاول الكذب.
نصلي بقلوبٍ حاقدة.
نصوم عن الطعام، لا عن النميمة ولا عن الكراهية.
ندعو اللّه لأنفسنا، وفي الوقت ذاته... ندعو بالهلاك على غيرنا.
نحن من تغيّر،
أما الدنيا...
فبقيت كما هي، لم تمسسها يد التغيير...

وأكمل: إن "كارمن" كانت من ذاك الزمن الذي لن يعاد، ففيها كل شيء منه، الطيبة، الحنان، الأمانة والصدق. هؤلاء الناس لا يتغيرون بمرور الزمن، بل إنهم يعانون أكثر من غيرهم.

فمن الصعب على المرء أن يجاري مجتمعًا، يختلف معه في العادات والتقاليد.

فهو يبقى يعاني إلى أن يتفوق هو على هذا المجتمع، ويعيش به غريبًا عنه، أو أنه ينخرط بهذا المجتمع ويجاريه فيعيش به غريبًا عن عاداته وتقاليده وكأنه إنسانٌ آخر ولد من جديد.

بعد أن أنهى كلامه هذا،

سأله: إذا ما كان من المعقول أن شخصًا يقطع كل هذه المسافات من أجل امرأة يحبها.

فأجابه: أن من يحب حقًا لا يضع أمام عينيه سوى هدفه وهو الشخص المحبوب، فلا يأبه بمكان أو زمان، فيصبحان عديما القيمة مقارنة بلحظة لقائنا بمن نحب.

فيزول كل التعب، وكل المعاناة حال وصولنا إلى ذلك الشخص، فالحب كالحرب يقدم الإنسان فيها كل ما لديه ليحصل على النصر، فلا ينام، ويبقى حذرًا يناضل، يراقب كل التفاصيل لكيلا يخطىء، ولا يستريح حتى انتهائها.

لكن الحب يفترق عن الحرب بأن ليس له نهاية، فالحرب تنتهي بمجرد إعلان انتهائها، أما الحب فلا ينتهي طوال بقاء الإنسان على قيد الحياة.

حتى الزواج فهو ليس كما يعتقد البعض نهاية للحب، وإنما هو المرحلة الثانية منه، هو حب اقترن بورقة، ورقة يمنع تلوثيها بانتقاص الحب أو الإحساس بالملل بمن نحب.

سُر "إلياس" بما سمعه من "مكسيم"، فهو قد اطمأن على والدته بأن هناك من يحبها حقًا، ويسعى لإسعادها بعد كل ما ذاقته في غربتها، وبعد كل ما عانته من أجل أن تعيش بحب وسلام.

غادر "إلياس" و"مكسيم" المكان، وتوجها إلى منزل معارف "كارمن" و"إلياس"، وأمضيا ليلتهما هناك.

في اليوم التالي، استيقظ "مكسيم" باكرًا، وطلب من "إلياس" هو الآخر بالنهوض للذهاب إلى المستشفى للاطمئنان على "كارمن".

وبعد أن تناولا الفطور، ذهبا معًا إلى غرفة الرعاية، وكانت "كارمن" ما تزال فيها.

نظر إليها "مكسيم" من النافذة وراح يقول:

بصمة الحب على القلب لا يُمحيها أي زمن، فمن الجاهل الذي قال بأن الأيام كفيلة بالتصدي؟

فلا الأيام ولا السنين ولا ألوفها قادرة على خوض معركة مع قلب قال لا أريد غيرها.

الأيام لا تُنسي من نحب بصدق، ولكننا نتظاهر بالنسيان، ننسى الأيام التي عشناها، ولكننا لا ننسى الحب الذي عشناه في تلك الأيام.

إن الحب يأتي مرة ولا يُنسى وفي المرة الثانية التي نقول فيها قد نسينا ذلك الحب الأول يكون القلب في راحة واستبدل بالعقل الذي منعه من الشعور والإحساس.

فكلمة أحبك هي أصعب كلمة عرفها البشر، فهذه الكلمة الوحيدة التي لا يمكن إعرابها، فهي فعل وفاعل ومفعول به في آن واحد.

هذه الكلمة الأخيرة لا تقال عبثًا وإذا قيلت في غير موضعها أحسسنا بها، فهي الكلمة الوحيدة التي تخرج من القلب مباشرة دون أن تمر بالعقل.

فقلوبنا طاهرة لا تنطق إلا بالحب ولا تفكر إلا به، من هنا كان النسيان لا محل له في الحب، فالنسيان يأتي من العقل، والحب يأتي من القلب والاثنان يأتيان من مصدر مختلف عن الآخر.

ها أنا يا "كارمن" باقٍ على حبكِ، كبقائي في الحياة.

فها أنا، كلما أحسست بالبرد، ركضت إلى ذراعيك...

وكأن دِفء الدنيا كلها يسكن فيكِ.

وما إن شعرت بالحزن، حتى أتيت إليكِ،

فبمجرد رؤيتك يتبدل حزني فرحًا.

وكم من مرة أحسست بعطشٍ شديدٍ،

فارتويت فقط بالتأمل فيكِ.

لكن الجوع... الجوع يتفاقم عند أول نظرة،

كأن عينيك توقظان شهيتي، وتشعلان بي نار الجوع من جديد.

ظاهرة غريبة أنت...

مع ذلك حققت كل ما هومطلوب.

ففسرت ما كان مفقودًا في داخلي.

فالدفء...دفء القلوب،

والارتواء... ارتواء الروح،

والاكتفاء ليس بالجسد بل للقلب.

فما نفع الأجساد إذا كانت دافئة، مكتفية ومرتوية وكانت قلوبنا جائعة، عطشى ومرتجفة... فأنت مصدر الدفء، والاكتفاء والارتواء لكل قلب عاشق.

وما إن أنهى "مكسيم" كلامه حتى راح يبكي على حال حبيبته، فتقدم منه "إلياس" وهدأه وقال له: ستعود لكَ، وستكون بخير. استمر كل من "مكسيم" و"إلياس" على هذا الحال لمدة ثلاثة أيام، فهما يأتيان كل يوم لزيارتها.

وفي زيارتهما الرابعة، كانت "كارمن" قد بدأت بالاستفاقة، وسمح لهما الطبيب بالدخول إلى غرفتها.

طلب "مكسيم" من الطبيب الدخول إلى غرفتها، وعند دخواه كان يسمع صوت الأجهزة التي تحاوطها أقترب منها وقبلها على رأسها، وما إن وضع يده على يدها حتى شعر أن يد "كارمن" بدأت بالتحرك، فقام "إلياس"بمناداة الطبيب فهو قد دخل معه أيضاً والذي سُر بذلك، وطمأنهم أنها ستكون بخير وستستفيق في القريب العاجل.

سُر "مكسيم" بما سمعه من الطبيب، وكأنه كالطفل الذي يبتسم لأول مرة لوالديه.

طلب منهما الطبيب مغادرة الغرفة، فباشر "إلياس" بذلك إلا أن "مكسيم" طلب من الطبيب البقاء لبعض الوقت، فرفض الطبيب ذلك، ونصح بالمغادرة لكي تتمكن من الاستراحة.

غادرا سويًا وهما بغاية السرور على ما سمعاه من الطبيب. توجها إلى المنزل الذي يقيمان فيه، وهناك أمضيا بقية نهارهما وباتا ليلتهما.

في اليوم التالي، طلب "مكسيم" من "إلياس" أن يذهب به إلى أحد محلات الزهور ليقوم بشراء بعض أنواع الزهور التي تحبها حبيبته.

فأبتسم "إلياس" من كلامه وتصرفه فبرغم مرور السنين لم

يتغير حبه لها، بل أنه زاد، قام "مكسيم" بشراء باقات من جميع الأنواع التي تحبها حبيبته، وتوجه بهم برفقة "إلياس" إلى المستشفى.

في هذه الأثناء، كانت قد استفاقت "كارمن" قليلًا، وتم نقلها إلى غرفة أخرى في المستشفى بناءً على توصيات الطبيب المعالج.

وما إن دخلا المستشفى حتى توجها إلى غرفة الرعاية، فلم يجدوها هناك.

فقاموا بسؤال أحد الممرضين الذي صادف مروره في الممر، وراحا يسألانه عن المريضة التي كانت في غرفة الرعاية بالأمس، فأخبرهم الممرض بأنه تم نقل جثتها إلى المشرحة بعد أن حدث لها نزيفٌ حاد في الليل أدى إلى وفاتها.

لم يفهم "مكسيم" ما قاله الممرض، ولكن بعد أن رأى وجه "إلياس" قد شحب لونه، أصابه الخوف على مصير "كارمن".

فطلب من "إلياس" أن يخبره عما قال له ذلك الممرض.

فقال "إلياس" لـه: إن جثة والدته في المشرحة بعد أن تعرضت لنزيف حاد في رأسها ليلًا أدى إلى وفاتها.

بدأ يصرخ "مكسيم" في الممر كالمجنون، وما إن سمع الطاقم الطبي صراخه حتى خرجوا جميعًا من مكان عملهم إلى الممر، وكان من بينهم الطبيب المختص بمعالجة حالتها، والذي سأل عن سبب صراخه.

فأخبر "إلياس" الطبيب أنه يصرخ حزنًا على "كارمن" التي أصابها نزيف في الليل أدى إلى وفاتها.

فقال الطبيب: ومن الأحمق الذي أخبركما بذلك؟

فقال: الممرض الذي يعمل في هذا القسم.

طلب الطبيب منه الهدوء، وأخبرهما أن "كارمن" بحالة جيدة وتم نقلها إلى غرفة أخرى، لأن حالتها لم تعد بحاجة للبقاء في غرفة الرعاية..

أخبر "إلياس" "مكسيم" ما قاله الطبيب، فتوقف عن الندب، وطلب منه أن يسأل الطبيب عن مكانها.

وبعد أن سأل الطبيب عن مكان وجودوها، أخبره الطبيب بمكانها.

توجه الاثنان معًا إلى غرفتها، وما إن طل "مكسيم" بوروده حتى كادت "كارمن" تنهض من على سريرها، تفتح عينيها ثم تغمضهما غير مصدقةً لما تراه، وكأنها ترى روحها موجودةً أمامها، فهي غير مصدقة ما تراه فأخيراً ترى حبيبها أمامها فبرغم أن ملامحه قد تغيرت لكنها تراه ذلك الشاب الذي كان يمر من أمام السلم.

اقترب منها بخطوات بطيئه فيناه تدمع غير مصدقاً أن حبيبته امامه فحضنها حضن الطفل لأمه التي فقدها لسنوات، وراحت

هي تبكي في حضنه بكاء الطفلة التي لا تجد مكانًا للبكاء خيرًا من صدر أبيها.

قال لها وهو يتنهد من البكاء:

أنتِ ابنتي التي كلما نظرت إليها وددت لو أحضنها، والتي كلما حضنتها وددت ألا تفارقني أبدًا.

أنتِ ابنتي التي كلما سمعت صوتها رحت أردد كلماتها كالببغاء، والتي كلما غابت عن عينيّ راحت عيناي تتفقد طريقها منتظرة بكل شوق عودتها.

أنتِ ابنتي التي لا تكبر أبدا فتبقى في عيني تلك الطفلة التي لم يمر عليها زمن.

استمرت "كارمن" بالبكاء في حضنه، وكأن هذا الحضن كان الموضع الوحيد للحديث عن مشاكلها بعد اللّه.

بعد أن حضنها "مكسيم" حضن العائد إلى الحياة من جديد، قدم لها مختلف أنواع الزهور الذي اشتراها لها كان يلقيها بجانبها على السرير أما البعض الأخر أعطاها إياه في يدها وهو يقبلها.

ماذا يفعل البديل في حضور الأصيل، فها أنا قد استنشقت راحتك التي فيها كل أنواع الزهور مجتمعةً.

سُر "إلياس" بما رأى وبما سمع، وأقترب هو أيضاً من والدته ممازحًا: لكنك لم تشمي رائحتي أنا، التي قد لا يكون "مكسيم" حاملها، من الممكن أن تجعلني حبيبك الثاني لن أطلب الكثير.

ضحكت "كارمن"، وقالت له: لكل منكما رائحة عذبة في قلبي، ولا تغني إحداهما عن الأخرى.

فرائحة "مكسيم" أساسها قلبي، ورائحتك مصدرها رحمي، ولكل رائحة جوهر مختلف عن الآخر.

جلس الاثنان كل منهما على حافة السرير، وكانت "كارمن" حائرة بين الحفتين فهي نائمة بينهم وكل منهما ممسكا يدها التي بجانبه كأنه يقول لها أنت حبيبتي التي أعشقها دون أراده مني.

وعند حلول موعد الغداء، دخلت أحدي الممراضات الغرفة ومعها الطعام أخذ "مكسيم" الطبق منها وراح يطعم "كارمن" بيده.

كان إلياس جالساً يشاهد ذلك المشهد الرومانسي دون دفع المال لمشاهدته في فيلم سينمائي، ولكنه كان سعيداً لسعادة والدته، فأخيراً ولأول مرة يرأها تضحك من قلبها.

ومع انتهاء موعد الزيارة، أقترب "مكسيم"منها ليقبلها على رأسها قبلة الرضاء، وكأنه يطلب رضاءها عن غيابه عنها وتركها وحيدة تواجه متاعب الدنيا دون سند.

غادرا الاثنان وهما بكامل السعادة على ما قد طرأ من تحسن على حالتها الصحية.

وأثناء طريق عودتهما إلى المنزل المستضافان فيه، راح ينظر "مكسيم" إلى كل ما حوله كأنه يرأه لأول مرة، والتفت إلى

"إلياس" محدثه عن جمال الطبيعة وعن حلاوة الحب، فهو كان مسرورًا لسماعه وهو يتحدث بتفاؤل حول الحياة.

محدثاً نفسه: إنه الحب الذي يقلب كل شيء قبيح فيراه جميلًا، فالعاشق إذا ما كان سعيدًا رأى كل شيء جميلًا، وإذا ما كان حزينًا ينظر إلى كل ما حوله بكآبة مفرطة.

ففي الحب يكون كل شيء مختلفًا، الآلام تنقلب أفراحًا، والصعوبات تنقلب سعادة.

وما إن وصلا إلى المنزل حتى أحس "مكسيم" بجوع كبير، وكأنه لم يأكل منذ سنين.

وعند حضور الطعام، راح "مكسيم" يشبع احتياجه النفسي لأكل الطعام عبر أكل كميات كبيرة من الطعام التي نفذت قبل أن يحس بالشبع.

في هذه الأثناء، كانت "كارمن" مستلقية في سريرها تفكر بـه وبما ستقوله له حول ما قامت به من أفعال فاحشة بغيابه عنها، ولكنها بدأت تصبر نفسها معتبرةً أن ما قامت به لم يكن إلا نتيجة لفراقها عنه.

ففي الفراق يكون الشخص ليس على طبيعته، فيتصرف تصرفات لا يمكن له أن يتصرفها إذا ما كان بحالته الطبيعة. فيضعف الإنسان أمام أي شيء ضعيف من ملذات وشهوات، ويحاول سد نقصه من الحب عبر السعي وراء هذه الشهوات.

إنه الهروب، الهروب من الواقع الذي نعيشه إلى واقع قد يكون قذرًا في كثيرٍ من الأحيان.
فمن منا لم يهرب من واقعه الأليم سواء أكان حبًا أو معاناةً إلى عالمٍ آخر كالمخدرات، المسكرات أو كلعب القمار.
فالفراق يُحدث في داخل الإنسان فراغًا، يحاول المرء أن يملأه بأي شيء قد يجده أمامه، فيغيب عقله عن التفكير ويسعى وراء أي شخص يطرح عليه فكرة خروجه من واقعه الأليم.
بقيت "كارمن" لساعات طويلة، تفكر إذا ما كان يتوجب عليها إخبار "مكسيم" بما فعلته بغيابه أو أنها تخفي عنه هذه الأفعال، وتكمل حياتها معه بشكلٍ طبيعي خاصةً أنها قد تخاف على فقدانه مرة أخرى وهي التي تشكر الرب على عودته إليها سالمًا.
ولأن "كارمن" تعشق "مكسيم" كل هذا العشق، فقررت أن تخبره بكل ما فعلته بغيابه وأن تضع له حرية الخيار بين أن يبقى معها أو أن يرحل مرة أخرى.
بعد أن أخذ "مكسيم" قسطًا من الراحة، أخبر "إلياس" أنه يريد أن يذهب للسير قليلًا في الطبيعة، فأخبره أنه يريد مرافقته في جولته هذه، إلا أنه اعتذر منه وتمنى عليه أن يدعه يستكشف الطبيعة وحده.
لم يمانعه في طلبه، فأخبره أنه سيظل ينتظره في المنزل إلى أن يعود.

خرج "مكسيم" من المنزل، يمشي في الطبيعة وكأنها المرة الأولى التي يرى فيها هذه الطبيعة جميلةً إلى هذه الدرجة. فراح يتوقف عن كل شجرةٍ يحدثها حديث العشاق المجانين، ينظر إلى بعض الطيور المارة محاولًا مغازلتها بأجمل العبارات. كل شيء كان جميلًا مع عودة "كارمن" إلى حضنه، الهواء، الماء، الطبيعة حتى الطيور فكانت جميلة.

وأثناء توقف بجانب إحدى الأشجار راح يقول:

افعل كل ما يجعلك تبتسم،

ما يجعلك تبكي فرحًا،

ما يجعلك أن تكون مفعمًا بالحيوية في كل حين.

طالما أن اللّه خلق البشر، والحيوان، والحجر، والشجر، فلا شك أنه لا يخلق قبيحًا.

ففي كل ما حدث هناك شيء جميل، ابحث عنه وستجده.

رغم غروب الشمس إلا أن "مكسيم" لم يتعب من السير في الطبيعة لكنه كان مجبرًا على العودة إلى المنزل، ليطمئن "إلياس" أنه بخير.

وعند عودته إلى المنزل، كان "إلياس" منتظره في الخارج، فسأله عن سبب تأخره إلى هذا الوقت وإذا ما كان قد ضل طريقه. أخبره أنه أراد الجلوس مع نفسه قليلًا لمراجعة سنين مرت، لم يكن فيها سوى الآلام والجراح والاشتياق لـ "كارمن".

تفهم "إلياس" كلامه، وراح يطمئنه أن الذي سوف يأتي سيكون أجمل، وأن الذي مر قد مر، وأن كل مُر سوف ينقلب جميلًا إذا ما كنا قد نسينا ما قد حل، وسامحنا بعضنا البعض على أخطائنا التي لن تنتهي.

في اليوم التالي، توجها كعادتهما سويًا إلى المستشفى للاطمئنان عليها.

كانت حالتها تمتثل للشفاء إلا أن رجلها اليمنى كانت مكسورة، وغلفت بالجبس في موضع الكسر، كل ذلك بسبب تلك السيارة المسرعة التي صدمتها قبل مجيئه بيومين.

بعد أن ألقيا التحية على بعضهما البعض، وتبادلا بعض الأحاديث الناعمة، طلبت منه أن يحدثها عن كل ما فعله بغيابها وهي سنين قد فاقت العشرات.

أخبرها أن هذه السنوات كانت كالجحيم لم يكن فيها سوى رائحة الدماء، ولم نكن نفعل شيئا سوى أن نحصي عدد القتلى من الطرفين.

فالقاتل أخ لي في الوطن والقتيل أخ لي في الوطن، وأكمل: لا أدري كيف اقترفت يداي هذه الأفعال، فكنت أجهش بالبكاء عندما أقتل، وكنت أتمنى لو أكون أنا القتيل مكان أي شخص أقوم بقتله.

من هذا الأحمق الذي يقتل، يدمر، يضرب من أجل بناء وطن؟!
كاذبٌ من يقول بأن حروبنا كانت من أجل الوطن، فحروبنا كانت عبثية، قذرة ولا يمكن لأي حربٍ قذرة أن تبني وطنا.
أي وطنٍ سيقوم على جثث أبنائه؟!
أي وطنٍ سيقوم بعد تدميره، نهبه وسرقته واغتصاب شعبه؟!
أي لبنان سيقوم بعد دمار بيروت، وتخريبها وهجرة أهلها؟!
من هذا الأحمق الذي يُطلق رصاصة في ست الدنيا؟!
من هذا المعتوه الذي يكسر حجرًا فيكِ يا بيروت؟!
من هذا المغفل الذي يرعب بيروت وأهلها، بالرصاص والإجرام؟!
آه يا بيروت...كم قسونا عليكِ.
دمرناك باسم الوطن، ونهبناكِ باسم الوطن، وهجرنا أهلكِ باسم قيام الدولة.
لم أرَ في تاريخ البشرية فجورًا وظلمًا كالفجور والظلم الذي ارتكب فيكِ، يا بيروت.
قاتلنا لأجل الوطن...
وها نحن اليوم متغربون، نبحث عن وطنٍ آخر!
آه يا بيروت، كم كنا حمقى عندما أطلقنا فيكِ الرصاص.
مخطئٌ من يظن أنا كنا نطلق النار على بعضنا، فقد كنا نطلقه على "ست الدنيا"، نكافئها بالدمار...لأنها وطننا.
كذبوا علينا، وكذبنا على أنفسنا، حين قلنا إن حروبنا لأجلكِ.

والحق أننا، شرقيين وغربيين تحالفنا لنشنّ حربًا عليكِ.

جرح بيروت لن يشفى، لن يطيب ما دام شعبك يفكر بالطائفية والمذهبية قبل أن يفكر بالوطن والمواطنة.

ستنتهي الحرب... كما ينتهي كل شيء،
لكن معاناة بيروت لن تنتهي.
ستبقى الجدران تتذكر
أن من أطلق الرصاص عليها،
هو نفسه من كان يتكىء عليها.

ستنتهي الحرب،
لكن المياه ستبقى تتذكّر
أن من لوّثها .. شرب منها يومًا.

ستنتهي الحرب،
لكن الطرقات لن تنسى
أن من شوهّها.. مشى عليها يومًا.

ستنتهي الحرب،

لكن الشجرة ستحمل في جذورها
أن من أحرقها... أكل من ثمارها يومًا.
آه يا بيروت...
ماذا فعل بكِ أهلكِ؟!

قاطعت "كارمن"، حديثه وقالت له: دعكَ من هذا كله، فأريد أن أخبركَ ما فعلت بغيابك.
فبدأت تتحدث عن كل الشواذ الذي فعلته أثناء غيابه عنها، هنا قاطعها هو الآخر، وطلب منها أن تتوقف عن كل هذا.
وقال لها: إن الحب يحجب ما قبله، فإن كان ما فعلته في غيابي خيرًا فأذني ستسمعه وإن كان به شرًا فهي مما لا شك تعزف عن سماعه.
فرحت "كارمن" بما قاله حبيبها، ووعدته بأن تبقى معه إلى الأبد.
طلب منها أن تذهب لتتمشى معه في حديقة المستشفى قليلاً، فوافقت وبقي "إلياس" منتظرًا في الغرفة.
اتكأت "كارمن" عليه وكأنه عصاها، وما أجمل أن يكون الرجل عصا المرأة عند وقوعها، فتنهض بمساعدته وتتكىء عليه طالما هي مكسورة.

في الحديقة أجلسها على تلك الأريكة وأمسك يدها لتقبيلها وحينها طلب منها الزواج.

سُرت بما سمعت فأخيراً سمعت هذه الكلمة من حبيبها، فردت عليه ووجهها مشرقاً كأنها عادت تلك المراهقة ذات الخمسة عشر عاماً: أبعد هذا العمر تطلب مني الزواج؟

عندئذٍ سارع بالرد عليها: وهل الزواج يحتاج عمرًا معينًا لنقوم بإبرامه؟

فأنت وبرغم كل هذه السنوات التي مرت لم تتغيري فأنت تلك الجميلة التي كانت تتنظرني عند السلم كل يوم فعيناكي كانت تبوح بكل شيء بداخل قلبك، ألا تتذكرين حينما غيرتك، فقلبي ذلك اليوم كان فرحاً، ولكن كان للقدر كلمته.

ولكني اليوم أصحح كل شيء.

كانت عيناها تلمع، ولكنها طلبت منه أن يأخذ رأي "إلياس" ابنها.

فأمسك يدها لكي يصعداً إلى الغرفة سريعاً لطلب يدها من "إلياس" الذي سُر بما سمع، وبارك قرارهما بالارتباط.

تمت

.زهرة المسيح

لقد أعادنا هذا المجتمع إلى أيام الجاهلية، لا فرق بيننا وبينهم سوى ناطحات سحاب وتقدم العمران.
ففي الجاهلية قُدست المادة على حساب الأخلاق والقيم، واليوم تتكرّر المأساة ذاتها، لكن بأقنعة أنيقة وبشعارات براقة تُخفي قبح الواقع.
نمارس في عصر واحد كلَّ ما مارسته الجاهلية على مدى عصور، من تفكك اجتماعي، وانهيار أخلاقي، وإفلاس قِيَميّ.

.بِبْلُومَانِيَا

9 789779 942520

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

amazon

Google Play

www.bibliomaniapublishing.com